ثقافات الشعوب

@ketab_n
4.11.2014

@ketab_n

سيلو والصيّاد
الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

جمع: جايمس موني
ترجمة: فادي طفيلي

سيلو والصياد

الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

جمع:
جايمس موني

ترجمة:
فادي طفيلي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيلو والصياد

الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

سيلو والصياد: الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

E99. C5 M776 2009
Mooney, James, 1861-1921.
[Myths of the Cherokee]

سيلو والصياد: الحكايات الشعبية لقبيلة الشيروكي/ جمع جايمس موني؛ ترجمة فادي طفيلي. -
ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
176ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 3- 978-9948-01-509
ترجمة كتاب: Myths of the Cherokee
1 - القصص الشعبية الأمريكية 2 - الحكايات الأمريكية. أ- طفيلي، فادي. ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ .
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
قبيلة الأفاعي	13
الأوكتينا والأولونسو تي	21
بحثُ أوغان–أوني تسي عن الأوكتينا	25
الرجل الأحمر والأوكتينا	30
الصياد والـ أوكسو هي	32
الأوستو تلي	35
الأوتسون تا	39
الصبي الثعبان	40
الرَجُل الثعبان	42
انتقام الأفعوان المُجَلجَل	44
الزواحف الأصغر – الأسماك والحشرات	46
لماذا جاء رأس الضفدع مخططاً	57
عشيقة الضفدع	58
تحذير الجندب	61
قصص العجائب	63
أونتساي بي، المقامر	64
عش الـ تلا نوا	74
الصياد والـ تلا نوا	77
أو تلون تا، إصبع الرمح	80

Twitter: @ketab_n

نون يونو وي، رجل الحجر	87
الصياد في داخل الـ داكوا	91
الحكاية نفسها بحسب واهنينوهي	93
أتاغا هي أو البحيرة المسحورة	94
العروس الجنوبية	96
رَجُل الجليد	98
سيلو والصياد	100
نمور باطن الأرض	102
تسونديغي وي	105
أصل الدب: أغنيات الدب	107
الرجل الدب	113
عَلَقَة تلانوسي يي العظيمة	118
الـ نوني هي وغيرهم من جماعات الروح	122
دور البلدات المنقولة	135
مدافعو الروح في نيكواسي	138
تسول كالو أو المارد المائل العينين	142
كانا ستا أو القرية الضائعة	151
تسُوي ناهي: أسطورة بيلوت نوب	155
الرجل الذي تزوج شقيقة الرعد	161
الدوامة المرصودة	167
ياهولا	169
أكلة لحوم البشر المائيين	173

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

الشيروكي هم إحدى أشهر قبائل سكان أمريكا الشمالية الأصليين، ممن عرفوا من قبل المستعمرين البيض باسم «الهنود الحمر» وذلك استناداً إلى ظن كريستوفر كولومبوس الخاطئ بأنه وصل إلى الهند حين وصل إلى بلادهم في أكتوبر عام 1492م.

منذ أزمنة قديمة سبقت وصول كولومبوس وما تلا وصوله من استعمار أوروبي، وقبل ترحيل الشيروكي من الجنوب إلى محميات في غرب نهر الميسيسيبي، عملاً بـ «قرار نقل الهنود» الذي وقعه الرئيس الأمريكي السابع أندرو جاكسون عام 1830، فقد سكن الشيروكي المناطق التي أخذت تمثل منذ القرن الثامن عشر جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وانتشرت بلداتهم وقراهم في بيئة جغرافية متنوعة شملت ولايات ألاباما وجورجيا وكنتاكي ونورث كارولينا وساوث كارولينا وتنيسي وفيرجينيا.

Twitter: @ketab_n

وتمثل المناطق والولايات الجنوبية الأمريكية تلك، المسرح الطبيعي لقصص الشيروكي التي بين أيدينا، فَتَرِد أسماؤها كلها في كثير من القصص، كما ترد أسماء أنهارها وجبالها وسهولها وقراها وحيواناتها وطيورها ونباتاتها الكثيرة المميزة، هذا إضافة إلى أسماء العديد من القبائل الأخرى التي جاورت الشيروكي في تلك البلاد وتفاعلت معهم سلماً أو حرباً. كما ترد في القصص عبارات وأسماء كثيرة دُونت في لغة الشيروكي الخاصة التي تنتمي إلى عائلة لغة الإيروكوا، القبيلة الهندية الكبيرة الأخرى. وقد نقلنا في هذا النص المترجم تلك العبارات والأسماء حسب ما تُلفظ بالأحرف العربية استناداً إلى لفظها بالأحرف اللاتينية. هذا وارتأينا ترجمة عبارة «مستعمرة» (settlement)، التي ترد في القصص لتشير إلى بلدات الشيروكي والقبائل الأخرى، إلى «قرية»، وذلك لتمييز قرى وبلدات الهنود عن «المستعمرات» ومفهومها الذي جاء مع المستعمرين الأوروبيين البيض وارتبط بهم.

لم يكن الشيروكي يسمون حكاياتهم هذه أساطير. إذ كانت مروياتهم تُعد بمثابة تعاليم مقدسة تفوه بها أجدادهم وكبار حكمائهم للإشارة إلى حقائق الكون والوجود الخالدة. وهي،

Twitter: @ketab_n

حسب ما اعتقدوا، تخصهم وحدهم، فلم يكن جائزاً قيام آخرين، قبائل أو شعوباً، بسردها وإخبارها.

حسب الإحصاء الرسمي لتعداد السكان في الولايات المتحدة الصادر قبل سنوات، تُعد قبيلة الشيروكي أكبر قبيلة هندية بين القبائل الخمسمئة والاثنين وستين المعترف بها فدرالياً في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. وكانت القبيلة المذكورة قد اعتبرت منذ القرن التاسع عشر، من قبل المستعمرين البيض، إحدى «القبائل المتحضرة الخمس» نظراً لكثرة تفاعلها معهم في الثقافة والزواج وأساليب الحياة. الأمر قد يفسر ربما اهتمام «مكتب الدراسات العرقية الأمريكي» في واشنطن بقبيلة الشيروكي في أواخر القرن التاسع عشر.

جايمس موني، مُحقق هذه القصص وجامعها، المولود في ريتشموند بولاية إنديانا عام 1861، هو أحد أفراد الجيل الأول لباحثي الأنثروبولوجيا المحترفين في الولايات المتحدة، إذ كان قد بدأ عمله كباحث في مكتب الدراسات العرقية الأمريكي في عام 1885 حين انتقل من ريتشموند إلى العاصمة الأمريكية، واشنطن. وقد تمحور اهتمام موني الأكبر في عمله البحثي، على نحو خاص، حول تاريخ شعب الشيروكي وثقافته، فقضى

Twitter: @ketab_n

سنوات عديدة من حياته مختبراً العيش في أوساط القبيلة بولاية نورث كرولينا، متعلماً لغتها ومستقصياً عن عاداتها وتقاليدها ومسجلاً قصصها التي سمعها من أفراد قبليين مسنين ومن أشخاص تربطهم بالشيروكي صلات قربى، كما من رواة آخرين كانوا قد سبقوه إلى تسجيل القصص ونقلها وتأويلها. وقد أشار موني، في سياق الحكايات التي جمعها وفي حواشيها إلى الكثير والوافي من تلك المصادر الأولى والثانية التي نقل عنها، مما يدعم مكانته وسمعته عند معظم المهتمين والباحثين بثقافة السكان الأصليين في أمريكا، كمحقق «المدونات الأكثر دقة في ثقافة الشيروكي وتاريخهم».

فادي طفيلي

Twitter: @ketab_n

قبيلة الأفاعي

يطلق الشيروكي على جنس الأفاعي اسم إندادو. وجميع الأفاعي تعد أنيدا ويهي، أي «خارقة للطبيعة»، وهي ترتبط بوثاق حميم مع آلهة المطر والرعد، ولديها تأثير لا ريب فيه على باقي الحيوانات وعلى قبائل النبات. وتتصرف الأفاعي والغزلان ونبات الجنسنغ كمثل حلفاء، كما يقال، فإن أصيب أحدها تنتقم جميعها من أجله. وتثير الأفاعي إحساساً هو مزيج من الخوف والتبجيل، ويحرص كل الحرص على تجنب قتل إحداها أو مضايقته، خصوصاً الأفعوان المُجَلْجَل. فذاك الذي يقتل أفعى، سرعان ما يواجه الأفاعي الأخرى، وإن قتل أفعى ثانية، فإن الكثير من الأفاعي ستحيط به من كل جانب وسيصاب حينذاك بالذهول من منظر أعينها المتلألئة وألسنتها السهمية وسوف يتوه كرَجُل مجنون عاجز عن تلمس طريقه للخروج من الغابة.

ولتدارك هذه البلية تقام صلوات معينة يتلوها العارفون وذلك كي لا يقطع أفعوان طريقهم، وإن التقى الصياد أول أفعى

Twitter: @ketab_n

منها في الموسم فإنه يستجديها بتذلل قائلاً: «لا تدع واحدنا ير الآخر هذا الصيف». وتعدّ روائح معينة، كرائحة الجزر الأبيض البري، وبعض الأغاني، كأغنيات أونيكا وي، أو تلك التي تُنْشد خلال رقصة دار البلدة، عدوانية بالنسبة للأفاعي وهي تحملها على الغضب. لهذا السبب فإن أونيكا وي لا تقام إلا في أواخر الخريف، وذلك بعد أن تكون الأفاعي قد أوت إلى أجحارها استعداداً للشتاء.

حين يُبصر شخص في منامه أنه تعرض للسعة أفعى، ينبغي علاجه كأنه لسع بالفعل، إذ أن شبح أفعوان يكون قد قام بلسعه حينذاك، وإن لم يجر علاجه فإن موضع اللسعة سوف يتورم ويتقرح على النحو الذي يحدث جراء اللسعة الحقيقية، حتى ولو بعد أعوام. ومخافة إغضاب الأفاعي ولو بالكلام، فإنه لا يقال البتة إن رجلاً لَسَعه أفعوان، بل يقال إنه «خُدش بالورد البري» فحسب. وتعتمد معظم المعتقدات والعادات في هذا السياق المزيد من الإشارات الخاصة تجاه الأفعوان المُجَلجَل.

ويدعى الأفعوان المُجلجل أوتسا ناتي، الاسم الذي يعني «الذي يملك جرساً»، تلميحاً إلى الجلجل. وبحسب أسطورة وردت في مكان آخر، فقد كان الأفعوان المذكور رجلاً فيما

Twitter: @ketab_n

مضى، وتحول إلى هيأته الراهنة إذ ربما يمكنه إنقاذ الجنس البشري قبل أن تُفنيه الشمس، المهمة التي أتمها بنجاح بعد فشل عديدين قبله. أما على ألسنة المسنين فيُذكر أيضاً باعتباره «عِقدُ الرعد»، ويعدّ قتل واحد منها بمثابة تدمير لإحدى أرفع حلي إله الرعد مكانة. وفي واحدة من الوصفات التي وجهت للبشر الصغار، أبناء الرعد، فقد تمت مناشدتهم كي يأخذوا مرض الأفعى لأنفسهم، لأنه «ليس سوى ما تزينون أنفسكم به».

لسبب جلي فقد اعتبر الأفعوان المُجَلجَل زعيم قبيلة الأفاعي وخُشي منه وجرى احترامه بناء على ذلك. وقليلون من الشيروكي قد يخاطرون بقتل أفعوان مُجَلجَل، وهم لا يفعلون هذا إلا تحت ضغط الحاجة الملحة، حتى إنهم يُجْبَرون حينذاك على التكفير عن الأمر بطلب المغفرة، شخصياً أو بواسطة كهان، من روح الأفعوان، وذلك من خلال صيغة محددة. إن لم يفعلوا هذا فسوف يرسل أقارب الأفعوان الميت عدداً منها لتعقب أثر المعتدي ولسعه كي يموت. ويقال إن الأفعوان المُجَلجَل لا يخشى شيئاً سوى نبتة تعرف باسم المنثور البري[1]، أو «مُعَلم الأفعوان المُجَلجَل»، وهي النبتة التي يستخدمها الأطباء لإبطال مفعول اللسعة، إذ يُعتقد أن الأفعوان سوف يفر مذعوراً من الصياد

(1) أو اللخنيس الاكليلي (م).

Twitter: @ketab_n

الذي يحمل معه قريباً من جسمه قطعة صغيرة من جذور النبتة المذكورة. كما يستخدم اللحاء الممضوغ من شجر الجرف لمعالجة اللسعة، وذلك ربما بالاستناد إلى العلاقة السحرية بين الأفاعي والرعد، إذ يُعدّ الشجر المذكور منيعاً في وجه الصواعق.

ورغم الخوف من الأفعوان المُجَلجَل، فإن لجلجله ذاك ولأسنانه ولحمه وزيته أهمية عظمى في إعداد الحجب، أو في الاستخدامات الطبية، ويقتل الأفعوان لهذا الغرض على يد كهنة محددين يدركون الطقوس والصيغ الضرورية للحصول على العفو. تلك الرغبة المتمثلة بجلد الشيطان حول الجِذْل، والتي تؤدي بالتالي إلى زيادة أجورهم، تعد حيلة شائعة يعتمِدُها رجال السحر. أما الغرباء الذين يرغبون في تعلم تلك المعرفة السرية فيتم ثنيهم عن الأمر، إذ يُخبَرون بأنه من الخطر تعلم ذلك، والسبب أن المُلَقن الجديد قد يكون عرضة مؤكدة للسع في سياق «الاختبار» الذي قد يدخله فيه الأفعوان ليرى إن كان تلقن الصيغة على نحو سليم. وحين يُقْتَلُ أفعوان مُجَلجَل يجب قطع رأسه ودفنه على عمق ذراع في الأرض، كما ينبغي إخفاء جسده بعناية في داخل جذع أجوف. فإن ابْقِيَ الأفعوان المقتول معرضاً للهواء، فسوف تُرْسِلُ الأفاعي الغاضبة حينذاك سيول المطر التي تجعل

Twitter: @ketab_n

الأنهر جميعاً تفيض. إلى ذلك، فسوف تخبر الأفاعي أصدقاءها في الجبال من الغزلان والجنسنغ، فتقوم الأخيرة بإخفاء نفسها كي يسعى الصيادون خلفها عبثاً.

ناب الأفعوان الذي تم قتله على يد الكاهن، وبالترافق مع الاحتفالات الخاصة التي تجرى فيما يكون الأفعوان قد مُدد من الشرق إلى الغرب، يُستخدم في إجراء عمليات الشق التمهيدية في أجساد المرضى بغية مدها بالدواء المضاد لأمراض معينة. قبل استخدام الناب المذكور، يقوم الطبيب بحمله بين إبهامه وبين إصبع يده اليمنى ويخصه بصلاة، يكون الناب في ختامها قد «صار حياً» وجاهزاً لإجراء العملية. وتفسير ذلك أن الإمساك المشدود والعصبي بالناب من قبل الطبيب يُرْعِش يد الأخير فيتحرك الناب قليلاً بين إصبعيه. جلاجل الأفعوان يتم ارتداؤها على الرأس، كما يأكل لاعبو الكرة في بعض الأحيان قطعة من لحمه لتزيد من بأسهم في مواجهة منافسيهم، لكن للأمر الأخير كما يقال تأثير سيء في حال انتقل ذلك إلى زوجاتهم. ويجري استخلاص الزيت من نصف الجسد السفلي، الجزء الذي يعد أكثر سمنة، وهذا الزيت عظيم الشهرة في أوساط الهنود كما في أوساط سكان الجبال من البيض، كعلاج للروماتزم والتهاب

Twitter: @ketab_n

المفاصل. وعلى الطبيب الذي يُعد الزيت أن يأكل من لحم الأفعوان أيضاً. وقد جرت العادة في مواسم وبائية معينة على تعليق أفعوان مُجَلجَل محمص (مشوي) في البيت، فيقوم رب البيت كل صباح بانتزاع قطعة صغيرة منه ويمضغها، ثم يمزجها بالماء، ويبصق المزيج على أجساد الآخرين لصونهم من المرض المعدي. كان ذلك يعد علاجاً أكيداً، لكنه كان يؤدي إلى إثارة طباع المرضى.

أما الأفعى النحاسية الرأس، وا ديغي – أسكا لي، «ذات الرأس البني»، وعلى الرغم من ارتباط الخشية منها بلسعتها السامة، فإنها أفعى مكروهة، وليست موضع تبجيل كما هو حال الأفعوان المُجَلجَل. وثمة اعتقاد يقول إنها سليلة حية أسطورية عظيمة، كما يقال إن لها «عينين من نار» نظراً لبريقهما الحاد. وتدعى الأفعى السوداء غولي غي، أي «المتسلقة». ويقال إن عضة في جسدها تُبعد ألم الأسنان، وثمة أيضاً اعتقاد، ربما استُمد من البِيْض، يقول إنه لو علق جسدها بشجرة فإنه سوف يجلب المطر في غضون ثلاثة أيام. وتدعى الأفعى الخضراء ساليكوا يي، الاسم الذي يستخدم أيضاً في الإشارة إلى نبتة محددة، هي عشب الدب التي تحمل أوراقها الوارفة النحيلة بعض الشبه بالأفعى

Twitter: @ketab_n

الخضراء. وكما هو الحال مع الأفعى السوداء، فإن الاعتقاد سائد بإمكانية تلافي ألم الأسنان وبصون الأسنان الداخلية على مدى العمر، وذلك عن طريق عض الأفعى الخضراء في جسدها. ينبغي أن يتم التقاطها من رأسها وذيلها، وعلى الأسنان كلها أن تُطبق دفعة واحدة عند وسط جسدها لأربع مرات متتالية، لكن من دون أن تُغرس في لحمها ومن دون أن تؤذيها. ويقول بعض الرواة إنه يجب تكرار العملية المذكورة أربع مرات ومع عدد مطابق من الأفاعي، كما أن يُلحظ بالترافق مع ذلك تحريم بعض الأطعمة. ولا يحظى مُقسِين[1] الماء، كانيغوا تي، بأي اعتبار خاص، لكنه أفعوان غابات نادر جداً، ويقال إنه يشبه الأفعى الخضراء في ما عدا عينيه الزرقاوين، ويعتقد بأن له قدرات عظمى خارقة للطبيعة، من دون أن يحدد مجال القدرات المذكورة. ويدعى الأفعوان المتمدد، المُنفِر لكن غير المؤذي، داليكستا، أي «المتقيئ»، بسبب عادته في البُصاق، كما يُدعى أحياناً كوانداياهو، العبارة التي لا أصل واضحاً لها. وهذا الأفعوان كان رجلاً فيما مضى، لكنه تحول إلى أفعوان بغية إتمام خراب ابنة الشمس، ونظراً لفشله في الواقعة المذكورة فإنه بالإجمال يلقى الازدراء.

(1) أفعى سامة (م).

Twitter: @ketab_n

في مخطوطة واهينوهي[1] تردُ أسطورة عن حية عظيمة تدعى، نظراً للونها، «أفعى الأرض». وكانت مشاهدة الأفعى المذكورة نذير موت بالنسبة للرائي، كما أن كارثة قبلية كان يتم توقعها فيما لو شاهد تلك الأفعى عدة أشخاص.

(1) واهينوهي، أو لوسي لووري هويت كيز، عاشت في أوكلاهوما خلال القرن التاسع عشر، وقد كتبت نصاً تناول تاريخ الهنود الشيروكي وعاداتهم نشره مكتب الدراسات الإثنية الأميركي عام 1889. النص، أو المخطوطة، عرف بـ «التقرير 196» (م).

Twitter: @ketab_n

الأوكتينا[1] والأولونسو تي

في قديم الزمان – هيلاهي يو – عندما غضبت الشمس على البشر في الأرض وأرسلت لهم مرضاً كي يدمرهم، قام القوم الصغار بتحويل رجل إلى أفعوان ضخم سموه أوكتينا، «متوقد العينين»، وأرسلوه ليقتل الشمس. لكنه فشل في تنفيذ المهمة، وكان ينبغي إرسال الأفعوان المُجَلجَل بدلاً منه، مما أثار غيرة الأوكتينا كثيراً وأغضبه حتى خاف الناس منه ورفعوه إلى غالونلاتي ليمكث هناك مع الأشياء الخطرة الأخرى. لكنه ما لبث أن ترك الآخرين خلفه ومضى، كما هو تقريباً، بضخامته وخطورته المعهودتين، وفي حين ظل الآخرون يقبعون في البرك العميقة في النهر، صار هو يعبر الجبال العالية وحيداً، تلك الأمكنة التي يسميها الشيروكي «حيث يمكث أوكتينا».

يقول العارفون إن الأوكتينا أفعوان عظيم، وهو ضخم بسماكته التي توازي جذع شجرة، وله قرنان في رأسه، وعرف

(1) أفعوان ذو قرون يرد في أساطير الهنود الحمر (م).

Twitter: @ketab_n

ساطع متوهج كمثل ألماسة في جبينه، وقشرُ جلدٍ متألق كوميض النار. وثمة على طول جسده حلقات، أو بقع من لون، وهو لا يمكن أن يُجرح إلا إذا أصيب في البقعة السابعة من حيث البعد عن رأسه، إذ يكمن هناك، تحت البقعة المذكورة، قلبه وحياته. وتسمى الماسة المتوهجة أولونسو تي، أي «الشفافة»، وقد يغدو من يحظى بها صانع العجائب الأعظم في القبيلة، إلا أن المحاولة في سبيل ذلك تساوي حياة رجل، إذ كل من تقع عينا الأوكتينا عليه يبهره نورهما الساطع فيهرع نحو الأفعوان بدلاً من أن يحاول الفرار.

حتى إن رؤية الأوكتينا نائمة تعني موتاً، ليس للصياد نفسه، بل لعائلته.

ومن بين كل المحاربين الجسورين الذين مضوا باحثين عن الأولونسو تي، وحده أوغان–أوني تسي عاد مكللاً بالنجاح. وما زال الشيروكي الشرقيون يحتفظون بالماسة التي عاد بها. إنها كمثل حبة كريستال كبيرة شفافة، تقارب حجم طلقة الخرطوش، يتوسطها خط أحمر قان يمتد من أعلاها إلى أسفلها. مالك تلك الماسة يحتفظ بها، ملفوفة بجلد غزال كامل، داخل وعاء خزفي مخبأ في كهف سري في الجبال. وكل سبعة أيام يغذيها بدماء طريدة

Twitter: @ketab_n

صغيرة، فيقوم، ما إن تموت تلك الطريدة التي اصطادها، بفرك الماسة كلها بدمائها. مرتان في كل عام ينبغي فركها بدماء غزال، أو أي حيوان كبير آخر. وإن نسي المالك تغذية الماسة في الوقت الموعود فسوف تخرج من كهفها في الليل بهيأة نار وتطير في الهواء لتطفئ ظمأها بدم حياة الساحر مالكها أو أي شخص آخر من قومه. ويمكن لذاك الأخير أن ينجو نفسه من هذا الخطر إذ يقول لها، حين يخبئها، بأنه لن يحتاج إليها مرة أخرى لوقت طويل. حينها سوف تذهب للنوم باطمئنان، فلا تشعر بالجوع إلى أن تُخرج مرة أخرى كي تُستشار في أمر. حينذاك ينبغي تغذيتها بالدم قبل استخدامها.

ولا ينبغي أن يراها أحد من البِيْض ولا أن يخاطر أحد في الاقتراب منها سوى مالكها، مخافة الموت الفجائي. حتى الساحر الذي يحفظها يشعر بالخوف منها، وهو يبدل مخبأها مرة في كل حين، فلا تحفظ طريق الخروج من ذلك المخبأ. حين يموت المالك فإنها تدفن معه، وإن لم يحصل ذلك فأنها تخرج من كهفها، كنجمة متوهجة، لتبحث عن قبره، ليلة إثر ليلة طوال سنوات سبع، حيث، وإن ظلت عاجزة من الوصول إليه، فسوف تعود أدراجها لتنام إلى الأبد في المكان الذي كان قد وضعها فيه.

Twitter: @ketab_n

كل من يملك الأولونسو تي يضمن النجاح في الصيد والحب وفي استمطار السماء، كما في كل عمل آخر، لكن فائدتها العظمى تبقى في تنبؤ مجريات الحياة. وحين تجري استشارتها لهذا الغرض فإن المستقبل يبدو منعكساً في البلور الصافي كما تنعكس الشجرة على صفحة جدول رائق تحتها، وسيدرك الساحر حينذاك إن كان المريض سيبرأ وإن كان المحارب سيعود من المعركة، وإن كان الفتى سيحيا حتى يهرم.

Twitter: @ketab_n

بحثُ أوغان-أوني تسي عن الأوكتينا

في واحدة من معاركهم ضد الشوانو الذين هم جميعاً من السحرة، قبض الشيروكي على ساحر عظيم يدعى أوغان-أوني تسي، «والد خنازير الأرض». وكانوا قد قيدوه وأعدوه للتعذيب حين توسلهم إبقاءه حياً متعهداً بأنه، إن أبقوه، سيعثر لهم على مجترحة العجائب العظيمة، الـ أولونسو تي. وهذه التي تشبه نجمة متوهجة تتركز في جبين أفعوان الأوكتينا العظيم، ويستطيع الساحر الذي يمكنه الاستحواذ عليها القيام بأمور مدهشة، لكن الجميع يدرك تعذر حصول ذلك، إذ أن لقاء الأوكتينا يعني الموت المحتوم. حذروه من كل هذا لكن جوابه الوحيد كان أن سحره فعال وأنه ليس خائفاً. فقاموا بمنحه حياته تحت ذلك الشرط، ثم بدأ ببحثه.

كان الأوكتينا يتربص منتظراً في أمكنة معزولة ليفاجئ ضحاياه، وقد تلبس، خصوصاً، المعابر المظلمة في جبال الدخان العظيمة. في البداية مضى الساحر الذي يدرك هذا الأمر، إلى ممر

Twitter: @ketab_n

جبلي في أقصى الحدود الشمالية لبلاد الشيروكي. وبحث هناك فوجد أفعواناً أسود غريب الشكل، أكبر مما عرفه في السابق من أفاعٍ سود، غير أنه لم يكن ذلك ما يسعى إليه، وضحك منه كشيء أصغر من أن يلحظ. وحين ذهب جنوباً إلى الممر الجبلي الآخر وجد هناك أفعوان مُقسين عظيماً، أكبر ما رآه من نوعه، لكن حين تساءل الناس عنه قال إنه لا يستحق الذكر. وفي الممر الجبلي التالي وجد أفعواناً أخضر ونادى الناس كي يشاهدوا «ساليكوا يي الجميل»، غير أنهم حين وجدوا أفعواناً هائلاً ملتفاً حول نفسه في الطريق، فروا مذعورين. تقدم إلى أوو تاواغون تا، الجبل الأقرع، فوجد هناك دِيا هالي (عظاءة) عظيمة تتشمس، لكن برغم ضخامتها وبشاعة منظرها، فإنها تكن ما يريد ولم تسترع انتباهه. فأكمل طريقه جنوباً إلى والوسي يي، موضع الضفدع، فوجد هناك ضفدعاً عظيماً جاثماً في الممر، لكن حين فر الناس الآتون لرؤية ذلك المسخ بعد أن أحسوا بالذعر كغيرهم، هزأ منهم كونهم ذعروا من ضفدع، ومضى إلى الممر الجبلي التالي. أكمل طريقه إلى دونيسكوا لغون يي، ممر القرون المتشعبة، وإلى بحيرة أتاغا هي الساحرة، وقد وجد في كل من المكانين زواحف هائلة، لكنه اعتبر أنها لا تعني شيئاً. اعتقد أن الأوكتينا قد تكون مختبئة

Twitter: @ketab_n

في أعماق مياه تلانوسي يي، موضع الليْش[1]، في هيواسي، حيث ظهرت هناك من قبل أشياء غريبة أخرى، وكي يصل إلى الموضع المذكور فقد غطس عميقاً تحت سطح المياه. وشاهد في الأعماق سلاحف وأفاعي مائية، وقد اندفع نحوه فرخان من سمك الشمس ثم تراجعا، لكن لم يحدث أي شيء آخر. فحاول في أمكنة أخرى دائماً في ناحية الجنوب، إلى أن وجد الأوكتينا أخيراً نائمة في جبل غاهو تي.

استدار من دون جلبة، وركض مسرعاً نازلاً من طرف الجبل، مبتعداً بقدر ما يستطيع وبنفس طويل واحد، حتى قارب أسفل المنحدر. وقف هناك وصنع دائرة كبيرة من أكواز الصنوبر، وحفر في قلب الدائرة خندقاً عميقاً. ثم أشعل النار بالأكواز وعاد ليصعد الجبل من جديد.

كان الأوكتينا لا يزال نائماً، فقام أوغان–أوني تسي بوضع سهم في قوسه وأطلقه إلى القلب الكامن تحت البقعة السابعة من حيث البعد عن رأس الأفعوان. رفع الأفعوان العظيم رأسه، والألماسة في جبهته تقدح ناراً، وانقض على عدوه، لكن الساحر استدار بسرعة وركض بأقصى سرعته نازلاً من الجبل وعَبَرَ دائرة

(1) أحد الضلعين العموديين لشراع رُباعي الأضلاع (م).

Twitter: @ketab_n

النار نحو الخندق بوثبة واحدة، واختبأ في باطن الأرض.

حاول الأوكتينا اللحاق بالساحر، لكن السهم كان منغرساً في قلبه، وفي لحظة تلت أخذ يتلوى مصارعاً الموت، نافثاً السم في أرجاء ذلك الجانب من الجبل. غير أن السم فشل في اختراق دائرة النار، فهسهس وفرقع في اللهب وحسب، وظل الساحر في الداخل بمنأى عنه سوى نقطة سم صغيرة واحدة أصابت رأسه القابع بمحاذاة الأرض، لكنه لم يدرك ذلك. الدمُ أيضاً السام كمثل الزبد، تدفق من جرح الأوكتينا وسال في المنحدر كجدول قاتم، لكنه دخل الخندق ولم يؤذ الساحر. تدحرج المسخ المحتضر منحدراً من الجبل، مقتلعاً في طريقه أشجاراً كبيرة إلى أن بلغ القاع. حينها دعى أوغان–أوني تسي كل طائر في الغابات للمجيء إلى الوليمة، وقد جاء الكثير منها، وإذ فرغت من تناول الطعام كانت العظام حتى قد نفدت.

في الليل بعد مضي سبعة أيام ذهب الساحر إلى الموقع. كان جسد الأفعوان وعظامه قد اختفت، وقد التهمتها الطيور، لكنه رأى نوراً ساطعاً يومض في الظلام، وحين تقدم إلى ذلك النور، وجد ماسة رأس الأوكتينا قابعة على غصن معلق خفيض، حيث جاء بها غراب أسود إلى هناك. ضمها الساحر برفق وحملها

Twitter: @ketab_n

معه، وقد غدا منذ ذلك الحين أعظم ساحر في القبيلة كلها.

حين عاد أوغـان–أوني تسي إلى القرية لاحظ الناس أن ثمة أفعواناً صغيراً يتدلى من رأسه حيث أصابته نقطة سم من الأوكتينا، لكن هو لم يلاحظ ذلك طوال حياته.

وغـدا الخندق الـذي مـلأه دمُ الأوكتينا بحيرة فيما بعد، بحيرة مياهها سوداء وقد أخذت النساء تصبغ فيها أعواد قصب سلالهن.

Twitter: @ketab_n

الرجل الأحمر والأوكتينا

ذهب شقيقان إلى الصيد معاً، وحين بلغا موقعاً مناسباً للتخييم في الجبال أوقدا ناراً، وفي حين همّ أحدهما ببناء ما يقيهما البرد، صعد الآخر في ممر ضيق باحثاً عن غزال. وهناك سرعان ما سمع جلبة في أعلى القمة كما لو أن حيوانين يتصارعان. تقدم مسرعاً في الآجام ليتبيّن مصدر الجلبة، وحين بلغ الموقع وجد أوكتينا عظيماً ملتفاً حول رجل ويقوم بلسعه لسعات مميتة. وكان الرجل الملسوع يقاتل من أجل حياته، وقد نادى الصياد: «ساعدني، يا ابن أخي، فهذا عدوك كما هو عدوي». صوب الصياد جيداً، ووجه سهمه إلى الرأس، ورماه نحو جسد الأوكتينا، ما جعل الدم يتدفق من موضع الإصابة. أرخى الأفعوان قبضته وأصدر صوت طقطقة، وراح يتشقلب منحدراً من القمة إلى الوادي شاقاً الأرض، وهو يتدحرج، كمثل ما يشقها دفق الماء.

نهض الغريب، وقد كان أسغا ياغي غاغي، رجل البرق الأحمر. وقال للصياد: «أما وقد ساعدتني، فإنني الآن سأكافئك وأمنحك

Twitter: @ketab_n

وصفة تقودك إلى الطرائد على الدوام». انتظرا إلى أن حل الظلام، ثم هبطا القمة إلى حيث تدحرج الأوكتينا الميت، لكن الطيور والحشرات حينذاك كانت قد التهمت جسد الأفعوان ولم تبق منه سوى العظام. في أحد المواضع كانت ومضات النور تنبثق من الأرض، وحين حفر الرجل الأحمر هناك، ليس بعيداً عن سطح التربة، وجد قشر الأوكتينا، ثم ذلك مضى نحو شجرة كان قد ضربها البرق، ثم، جامعاً حفنة من الحطب وموقداً النار، قام بحرق قشرة الأوكتينا، فغدت فحماً. فلف ذلك الفحم بقطعة من جلد غزال وأعطاه للصياد قائلاً: «طالما احتفظت بهذا فسوف تقتل الطرائد باستمرار». ثم أخبر الصياد بأنه، حين يعود إلى المخيم، عليه أن يبقي الوصفة في الخارج، معلقة بشجرة، لأنها وصفة قوية جداً وخطرة. وأخبره أيضاً بأنه حين يعود إلى الكوخ سوف يجد أخاه ممدداً في الداخل شبه ميت من تأثير حضور قشر الأوكتينا، لكن ينبغي عليه حينذاك أن يتناول قطعة صغيرة من القصب، أعطاه إياها الرجل الأحمر، فينقع بعضها بالماء ثم يشربها أخاه فيستعيد عافيته. ثم غادر الرجل الأحمر، ولم يتمكن الصياد من أن يتبيّن وجهته. عاد إلى المخيم وحيداً، ووجد أخاه مريضاً جداً، غير أنه ما لبث أن عالجه بوصفة القصب، وفي ذلك اليوم كما في اليوم الذي تلاه، وفي كل يوم منذ ذلك الحين، بات يجد الطرائد في كل مكان يسعى إليها فيه.

Twitter: @ketab_n

الصياد والـ أوكسو هي

جاء رجلٌ من جورجيا لزيارة بعض الأقارب في هيكوري - لوغ. وكان صياداً عظيماً، وبعد أن استراح في البيت ليوم أو يومين استعد للذهاب إلى الجبال. وحذره أصدقاؤه من مغبة الذهاب شمالاً، ففي تلك الجهة، على مقربة من إحدى الأشجار الكبيرة المقتلعة، كان يعيش أوكسو هي، الأفعوان الجبار الخطير. وكان هذا الأخير الأفعوان دائم التربص، فيثب، ما إن يتسنى له ذلك، على صياد غافل، ويلتف حوله ويعصره حتى يزهق روحه، ثم يرمي الجسد الميت عند أسفل طرف الجبل، في حفرة عميقة في هيواسي.

استمع الصياد بهدوء إلى تحذير أصدقائه، لكن ما قالوه لم يزده إلا تلهفاً لرؤية ذلك المسخ، فقام، ومن دون أن يذكر شيئاً مما كان عازماً عليه، بمغادرة القرية متوجهاً في الحال نحو الشمال ومتخذاً طريق الصعود إلى الجبل. ما هو إلا وقت قليل حتى بلغ شجرة مقتلعة فتسلق جذعها، وهناك، كما كان متأكداً، عند

Twitter: @ketab_n

الطرف الآخر من الجذع، كان الأوكسو هي العظيم ممدداً على العشب ورأسه مرفوع، غير أنه كان ينظر إلى الجهة المعاكسة. كان حجمه كبيراً جداً (بيديه يوازي دائرة قطرها قدم واحد). عاد الصياد الذي تملكه الخوف أدراجه في الحال وبدأ يركض، لكن الأفعوان سمع الجلبة فاستدار بسرعة وانطلق في إثره. ركض الصياد إلى أعلى القمة، والأفعوان على مقربة خلفه، ثم انحدر نحو النهر في الجهة المقابلة. برغم ذاك الركض كله أخذ الأفعوان يقترب بسرعة، وما إن بلغ الصياد الأرض الواطئة حتى أدركه وقام بالالتفاف حوله، مثبتاً إحدى ذراعيه بجنبه، لكن الأخرى بقيت طليقة. حينذاك شد عليه شدة رهيبة كادت تحطم أضلاعه، ثم أخذ يجره نحو الماء. بيده الطليقة تشبث الصياد بالآجام وهما يمران بها، لكن الأفعوان أدار برأسه ونفث أنفاسه في وجهه إلى أن تراخت يده. حصل هذا مراراً، وكانا في تلك الأثناء يقتربان أكثر فأكثر من حفرة عميقة في النهر، حينها وفي آخر لحظة، خطرت في رأس الصياد فكرة ملهمة.

كان العرق يتصبب منه جراء ركضه الحثيث عبر الجبل، وفجأة تذكر أن الأفاعي تعجز عن تحمل رائحة التعرق. واضعاً يده الطليقة على صدره، قربها إلى إبطه وجعلها تمتلئ عرقاً. ثم

Twitter: @ketab_n

سحبها وتمسك بإحدى الأجمات ما جعل الأفعوان يستدير برأسه، فعاجله حينذاك بصفعة من يده المتعرقة على أنفه. أطلق الأوكسو هي حينذاك لفظة لاهثة وكأنه أصيب بجرح، وأرخى قبضته وانزلق مسرعاً في الآجام، تاركاً الصياد، الذي لم ينهر رغم كدماته، يعود إلى داره في هيكوري - لوغ.

Twitter: @ketab_n

الأوستو تلي

ذات يوم كان هناك أفعوان عظيم يدعى أوستو تلي وقد اتخذ من أعلى جبل كوهوتا مسكناً له. أُطلق عليه اسم أوستو تلي، أو أفعوان «القدم»، لأنه لم يكن يزحف كما تفعل الأفاعي الأخرى، بل امتلك قدمين عند طرفي جسده، وتحرك بخطى واسعة أو اندفاعات، كمثل يَرَقانة كبيرة. كانت كل قدم من قدميه ثلاثية الزوايا مفلطحة، يمكنها التشبث بالأرض كأنها تمتصها امتصاصاً. ولم يكن له سيقان، غير أنه كان يرفع نفسه فيقف على قدميه، ويلوح برأسه المتلوي عالياً في الهواء إلى أن يجد موضعاً مناسباً كي يتخذ موقعاً جديداً، ثم كان ينثني ويثبت قدميه الأماميتين بالأرض بينما يكون قد أعلى مؤخرة جسده. من خلال دفع رأسه إلى الأعلى والتشبث بقدميه والتلوي بجسده على الأرض كان باستطاعته عبور الأنهار والوهاد. وفي كل موضع تظهر فيه آثار أقدامه كان يكمن الخطر. كان يثغو كثغاء ظبي صغير، وحين يسمع الصياد ظبياً يثغو في الغابات فإنه لم يكن يسعى إليه، بل يفر

Twitter: @ketab_n

في اتجاه آخر. في أعلى الجبل أم في أسفله، لا شيء يمكنه الفرار من مطاردة الأوستو تلي، غير أنه لم يكن بوسعه التقدم إلى طرف القمة، لأن وزن رأسه المتلوي الثقيل يزعزع ثباته في الأرض حين يتحرك في الطرق الجانبية.

بعد فترة ساد اعتقاد مفاده أن لا صياد في أنحاء كوهوتا يمكنه المخاطرة والاقتراب من الجبل، وذلك رهبة من الأوستو تلي. إلى أن جاء أخيراً رجل من قرى الشمال ونزل لزيارة بعض الأقارب في الجوار. حين وصل الرجل أقاموا له وليمة اقتصرت على الذرة والفول، وقد برروا عدم وجود اللحم بخوف الصيادين من الذهاب إلى الجبال. سأل الرجل عن السبب، وحين أخبروه قال إنه سيذهب بنفسه غداً فإما يجلب غزالاً أو يعثر على الأوستو تلي. فحاولوا ثنيه عن الأمر، غير أنه أصر على الذهاب، فحذروه قائلين إنه ينبغي عليه الركض في الحال إن سمع ثغاء ظبي في الآجام، وإن قام الأفعوان بلحاقه فعليه ألا يحاول الركض منحدراً من الجبل، بل بمحاذاة طرف القمة.

في الصباح انطلق ميمماً شطر الجبل، وبينما يسير عبر الآجام في السفح، سمع فجأة أمامه ثغاء ظبي. فأدرك في الحال أن ذلك هو الأوستو تلي ، لكنه حينذاك كان قد قرر مشاهدته، فلم يعد

Twitter: @ketab_n

أدراجه، بل تقدم إلى الأمام واثقاً، وهناك، من دونما شك، كان المسخ قابعاً، رافعاً رأسه الكبير عالياً في الهواء كأغصان الصنوبر، مجيلاً نظراته في كل اتجاه كي يعثر على غزال، أو رجل ربما، لطعام الفطور. وقع نظر الأفعوان عليه فتقدم نحوه في الحال، مندفعاً بخطوات واسعة، كل واحدة منها بطول جذع شجرة، مبقياً رأسه عالياً فوق الآجام وثاغياً وهو يتقدم.

من شدة خوفه لم يعد للصياد أي حيلة، فراح يركض في الحال صاعداً الجبل. انطلق الأفعوان العظيم في إثره، مقترباً منه بمقدار نصف طوله مع كل اندفاع جديد من قدميه، وقد كان موشكاً على بلوغه قبل وصول الأول إلى أعلى القمة، لكن الصياد تذكر فجأة ما كان قد سمعه من تحذير فبدل مساره وراح يركض بمحاذاة أطراف الجبل. حينذاك بدأ الأفعوان يفقد ثباته في الأرض، إذ كان في كل مرة يرفع نفسه يتسبب ثقل جسده بخروجه عن الخط المستقيم كما بسقوطه أكثر في انحدار طرف القمة. حاول الأفعوان التعويض عن تراجعه، لكن الصياد كان قد تقدم آنذاك وحافظ على تقدمه حتى بلغ نهاية القمة وغاب عن نظر الأفعوان. ثم تسلق بحذر إلى النقطة الأعلى ونظر من هناك فرأى الأوستو تلي يجهد ببطء في طريقه نحو القمة.

Twitter: @ketab_n

نزل إلى سفح الجبل، وفتح حقيبة النار التي كان يحملها، وأوقد ناراً في العشب وأوراق الأشجار. وما لبثت تلك النار أن امتدت إلى الجبل كله وأخذت تمضي صعوداً. حين تنشق الثعبان العظيم الدخان ورأى اللهب يقترب منه نسي أمر الصياد، وانطلق ساعياً بكل سرعته نحو جرف قريب من القمة. بلغ الصخرة وتسلقها، لكن النار تبعته، وأخذت تلتهم أشجار الصنوبر اليابسة القريبة من أسفل الجرف، إلى أن شقق وهجها حراشف الأوستو تلي. ثبت الأخير قدميه بالصخرة بقوة واندفع بكل قدرته جاهداً لعبور جدار النار الذي أحاط به، لكن الدخان خنقه فتراخت قدرته وسقط وسط جذوع الصنوبر المضطرمة واستقر هناك ليحترق مترمداً.

Twitter: @ketab_n

الأوتسون تا

في نون داي لي، البقعة الأكثر وعورة حول نهر نانتاهالا، والتي تسمى اليوم مقاطعة ماكون في نورث كارولينا، حيث الأجرف المشرفة هي الأعلى والنهر في الأسفل يمضي بعيداً، عاش في الأزمنة السالفة أفعوان عظيم يدعى أوتسون تا، أو «الواثب»، لأنه كان يتحرك بنخعات، كمثل ما تفعل اليَرَقانة، مثبتاً قسماً من جسده فقط على الأرض في أثناء حركته. استقر ذلك الأفعوان بالإجمال في الجهة الشرقية، حيث تطلع الشمس أولاً في الصباح، وكان يعبر من جهة إلى أخرى عبر مد جسده من النقطة الأعلى في الجرف كي يصل إلى ما يمكنه التشبث به في الجهة المقابلة، فيسحب حينذاك باقي جسده. كان أفعوان بالغ الضخامة، إذ كان حين يمد جسده هكذا، من جهة إلى أخرى، يُعتم بظله الوادي كله في الأسفل. لوقت طويل لم يعلم الناس بأمر وجوده هناك، لكنهم حين اكتشفوا ذلك تملكهم الخوف من العيش في الوادي فهجروه على الرغم من بقائه جزءاً من بلاد الهنود.

Twitter: @ketab_n

الصبي الثعبان

كان ثمة صبي يذهب في كل يوم لصيد الطيور، وكان يُعطي جميع الطيور التي يجلبها معه إلى البيت لجدته، التي كانت مولعة به كثيراً. وقد أثار الأمر حسد باقي أفراد العائلة الذين عاملوه على نحو جعله يخبر جدته أخيراً، في أحد الأيام، أنه سيغادرهم جميعاً، لكن ينبغي لها ألا تحزن من أجله. في الصباح التالي رفض تناول أي طعام للفطور، فغادر جائعاً إلى الغابة وغاب طوال النهار. عاد في المساء، حاملاً معه زوجاً من قرون الغزال، وتوجه مباشرة إلى الدفيئة[1] (أوسي)، حيث كانت جدته بانتظاره. أخبر المرأة المسنة بأن عليه أن يبقى بمفرده في تلك الليلة، فنهضت وذهبت إلى البيت حيث كان الآخرون.

في مطلع الفجر التالي عادت الجدة ثانية إلى الدفيئة ونظرت إلى الداخل، فرأت هناك أوكتينا عظيماً يملأ الدفيئة، وكان له قرنان على رأسه، لكنه امتلك قدمين بشريتين بدل ذيل الثعبان.

(1) مُستنبت زجاجي عالي الحرارة لإنتاج النباتات الاستوائية (م).

Twitter: @ketab_n

وقد كان ذلك كل ما بقي من حفيدها. خاطبها الصبي قائلاً لها أن تتركه، فغادرت مجدداً وخرجت من الباب. حين طلعت الشمس وصارت في كبد السماء، بدأ الأوكتينا يدب ببطء، غير أن النهار كان قد انتصف قبل اكتمال خروج الثعبان من الدفيئة. حين خرج أطلق فحيحاً فظيعاً، فهرب منه جميع الناس. أخذ يدب عبر القرية، تاركاً أثراً لمساره العريض في الأرض خلفه، إلى أن بلغ منعطفاً عميقاً في النهر، حيث غطس فيه وغاب في جوف المياه.

حزنت الجدة كثيراً من أجل حفيدها، إلى أن غضب الآخرون في العائلة وقالوا لها إنه بسبب تفكيرها الدائم به عليها الذهاب والإقامة معه. فتركتهم ومضت في إثر المسار الذي خلفه الأوكتينا إلى النهر وسارت في قلب المياه واختفت. وقد رآها رجل كان يصطاد السمك ذات مرة هناك، تجلس على صخرة كبيرة في النهر، وكانت تبدو بهيئتها المعهودة، لكن ما إن وقع نظرها عليه، حتى قفزت في المياه واختفت.

Twitter: @ketab_n

الرَجُلُ الثعبان

كان هناك صيادان، ذهبا معاً ولسبب يرتبط بتحريم لحم السنجاب والديك الرومي، إلى الغابة. عندما حل المساء وجدا موقعاً مناسباً للتخييم فأشعلا ناراً لإعداد عشائهما. خلال النهار كان أحدهما قد قتل سناجب عدة، وأخذ يستعد حينذاك لشوائها فوق النار. حذّره رفيقه من أن تجاوز التحريم وأكل لحم السنجاب سوف يحوله إلى ثعبان، غير أن الصياد ضحك وقال إن هذه ليست سوى قصة مشعوذ. مضى في استعداداته، وحين شُويت تلك السناجب تناول عشاءه منها ثم استلقى قرب النار لينام.

في وقت متأخر من تلك الليلة استيقظ صاحبه على صوت أنين، وحين نظر حوله وجد الآخر ممدداً على الأرض يتقلب ويتلوى ألماً، وكان القسم السفلي من جسده قد تحول إلى جسد وذيل ثعبان ماء كبير. كان الرجل ما زال قادراً على النطق فرفع صوته طالباً النجدة، لكن صاحبه لم يستطع القيام بشيء،

Twitter: @ketab_n

سوى الجلوس بقربه محاولاً تهدئة روعه بينما يشاهد ضمور ذراعيه في داخل جسده وتحول بشرته إلى حراشف بلغت رقبته بالتدريج، حتى غدا رأسه أخيراً رأس ثعبان، وقد دَب ذلك الثعبان مبتعداً عن النار وانحدر عبر الضفة نازلاً في النهر.

Twitter: @ketab_n

انتقام الأفعوان المُجَلجَل

ذات يوم في الزمان السالف حين كان ما زال بوسعنا التخاطب مع المخلوقات الأخرى، وبينما كان عدد من الأطفال يلعبون قرب البيت، سمعت والدتهم في الداخل صراخهم. خرجت مسرعة لتجد أفعواناً مُجَلجَلاً جاء زاحفاً على العشب، فاستلت عصا وقتلته. كان الوالد قد ذهب للصيد في الجبال، وفي طريق عودته إلى البيت في ذلك المساء بعد حلول الظلام سمع عبر الشعاب صوت نواح غريب. نظر فوجد أنه بات في وسط مجموعة من الأفاعي المُجَلجَلة، وقد فتحت أفواهها جميعاً وبدت وكأنها تبكي. سألها عن سبب ضيقها، فأخبرته أن زوجته قامت في ذلك اليوم بقتل زعيمها، الأفعوان المُجَلجَل الأصفر، وأنها على وشك إرسال الأفعوان المُجَلجَل الأسود كي يأخذ الثأر.

أظهر الصياد أسفه الشديد، لكن الأفاعي قالت له بأنه لو أراد أن يكون صادقاً عليه أن يكون مستعداً للتضحية فيقدم زوجته مقابل حياة زعيم الأفاعي المجَلجَلة. وافق الرجل من دون أن

Twitter: @ketab_n

يعلم ما قد يحصل إذا لم يفعل. ثم أخبرته بأن الأفعوان المُجَلجَل الأسود سوف يرافقه إلى البيت ويلتف حول نفسه قرب الباب في الظلام. ثم على الرجل أن يدخل، حيث سيجد زوجته بانتظاره، فيسألها أن تحضر له ماء منعشاً من الجدول. فيقضي الأمر.

مضى إلى البيت وعلم أن الأفعوان المُجَلجَل الأسود كان يتبعه. حين وصل كان الليل قد حل والظلام دامس، غير أنه وجد زوجته بانتظاره وقد أعدت له العشاء. جلس وطلب منها الماء. فناولته يقطينة ملأتها من الإبريق، لكنه قال إنه يريد ماء منعشاً من الينبوع، فأخذت زبدية وخرجت من الباب. بعد قليل سمع صيحة، وحين خرج وجد أن الأفعوان المُجَلجَل الأسود قام بلسعها وكانت تحتضر. جلس بقربها إلى أن ماتت، حينها خرج الأفعوان المُجَلجَل الأسود من العشب مجدداً وقال إن قبيلته لم تكتف بهذا. ثم قام بتلقين الصياد ترنيمة، وقال له: «حين تلتقي أحداً منا بعد هذا اليوم أنشد هذه الأغنية فلن نؤذيك، لكن إن صادف وقام أحدنا بلسع شخص من جماعتك فأنشد هذه الأغنية على مسمعه كي يُشفى». وما زال الشيروكي يحفظون هذه الأغنية حتى يومنا هذا.

Twitter: @ketab_n

الزواحف الأصغر - الأسماك والحشرات

ثمة أنواع متعددة من الضفادع والعلاجيم[1]، ولكل منها اسم مختلف، لكن القصص الشعبي المرتبط بها قليل جداً. يدعى الضفدع الأخضر المعروف والوسي، ويشيع في أوساط الشيروكي كما في أوساط غير المثقفين من البيض، بأن حمل الضفدع المذكور في اليد قد يسبب ظهور الثآليل[2]، هذه الأخيرة التي تحمل الاسم نفسه، والوسي. ويعتقد بأن الكسوف الشمسي سببه محاولة ضفدع عظيم ابتلاع الشمس، وفي الأزمنة السالفة كانت تسود عادة إطلاق الأعيرة النارية وإصدار الأصوات الصاخبة كلما حصل كسوف وذلك لإخافة الضفدع وإبعاده. الأنواع الأصغر حجماً من الضفادع تؤكل في بعض الأحيان، كما يؤكل في حالات نادرة «الضفدع الثور»[3] أيضاً، إلا أن لحمها يُحرم على لاعبي الكرة في أثناء تمارينهم، وذلك مخافة أن تنتقل هشاشة عظام الضفادع إلى عظامهم.

---

(1) العلجوم: ذكر الضفدع (م).
(2) الثُؤلول: خُرَاج ناتئ صلب مستدير (م).
(3) ضفدع أميركي كبير (م).

Twitter: @ketab_n

وتتخذ سلحفاة الأرض (توكسي) موقعاً بارزاً في أساطير الحيوانات، وهي تشتهر في أنها كانت محاربة عظيمة في سالف الأزمنة. ونظراً لصلابة أقدامها يقوم لاعبو الكرة بفرك أوصالهم بها قبل خوضهم المباريات. أما سلحفاة الماء المألوفة (ساليغو غي)، التي تحتل موقعاً مهماً في أساطير القبائل الشمالية، فليس من ذكر لها في أساطير الشيروكي أو في قصصهم الشعبية، والأمر مماثل بالنسبة للسلحفاة ذات الصدفة الرقيقة (أولانا وا)، والسبب يعود ربما إلى ندرة وجودهما في الينابيع الجبلية الباردة ببلاد الشيروكي.

هناك ربما ستة أنواع من السحالي، لكل منها اسم مختلف. سحلية الطريق الرمادية، أو ديو هالي (السحلية التمساح)، هي الأكثر شيوعاً. نظراً لعادتها في التناوب على نفخ حلقها وتنفيسه كأنها تمتص شيئاً وهي تنْعمُ بالشمس، فهي تُستحضر في وصفات سحب السم جراء لسعات الأفاعي. لو قبض شخص على أول ديو هالي يصادفها في النبع، وأبقاها بين أصابعه، حاكاً قدميه نزولاً بمخالبها، فإنه طوال الصيف، لن يرى أفاعي خطيرة. كما أنه إذا قبض على إحداها حية في أي وقت وتم فركها فوق حنجرة طفل، مع حك بشرته، في الوقت عينه، بنعومة بواسطة مخالبها، فلن يكون الطفل نكداً البتة، بل سيغفو بهدوء دونما تذمر حتى لو كان مريضاً أو معرضاً للخطر. وذاك اختبار فيه شيء

Twitter: @ketab_n

من المخاطرة، حيث سيكون الطفل بذلك عُرْضة لأن يغفو فوراً في أي موضع يمدد فيه، فتكون الأم على الدوام معرضة لخطر فقدانه. وبحسب بعض العارفين فإن سحلية النوم هذه ليست هي الـ ديو هالي، بل نوع أكبر أقرب إلى التي سيأتي وصفها.

وتوصف الغيغا-تسوها لي («الفم الدامي»)، بأنها سحلية كبيرة جداً، يقارب حجمها حجم كلب الماء، حلقومها أحمر اللون، كما زوايا فمها، كأنما من شرب الدم. يسود اعتقاد بأنها ليست سحلية حقيقية، بل سمكة أوغونستي لي مُحولة (موصوفة أدناه) وذلك نظراً لتطابقهما لونياً ولحقيقة أن السمكة المذكورة اختفت بالتزامن مع بدء ظهور الغيغا-تسوها لي. وهي سحلية ضارية ومريرة اللسع، وهي تطارد السحالي الأخرى. خلال الطقس الجاف تصيح وتصدر أصواتاً كمثل صوت الزيز، مُعلية نفسها إذ تصيح. ولديها عادة الاقتراب من موضع يجلس فيه شخص ما أو يقف، فتقف هي بدورها وتحدق مباشرة فيه، ولا تنفك عن نفخ حلقها حتى يغدو لرأسها لون أحمر قان. حينذاك يسود اعتقاد بأنها تقوم بمصّ دماء ضحاياها، فيتم تجنبها والخشية منها بناء على هذا الأمر. وتدعى السحلية العقرب الصغيرة (تسوني ني) أيضاً في بعض الأحيان بـ «مصاصة الدماء». وهي

Twitter: @ketab_n

سحلية مخططة تتواجد في العادة عند السواحل الرملية وهي تشبه الـ ديو هالي، لكنها بنية اللون. ويعتقد أيضاً أنها تمتص الدماء على نحو غامض كلما هزت رأسها، كما يعتقد أنه لو التهم كلب قلبها فإنه سيكون قادراً على استخراج كل الخواص الغذائية من الطعام بمجرد النظر إلى أولئك الذين يأكلون.

ويعتقد أن سحلية الينبوع الصغيرة (دوي غا)، التي تحيا في الينابيع، تُحدث المطر، وذلك كلما دبت خارجة من الينبوع. ومن المألوف استحضارها في وضع الوصفات. وهناك سحلية ينبوع أخرى، حمراء وعليها بقع سوداء، تُدعى داغان تو، أو أنيغانتي سكي، «صانعة المطر»، لأن صيحاتها تجلب المطر، كما يقال. أما كلب الماء (تسوا ، جرو الطين) فهو سحلية كبيرة جداً، أو أنه السمنْدل[1] بالأحرى الذي يتواجد عادة في المياه الموحلة. من النادر أكل هذه السحلية بسبب اعتقاد لا تفسير له يقول إنه لو ذهب من كان قد تناول لحمها ذاك إلى الحقل مباشرة، بعد تناوله إياه، فإن محصول الحقل المذكور سوف يتلف. وثمة أسماء لنوع آخر أو نوعين من السحالي، كما هو الحال بالنسبة للتمساح (تسولا سكي)، لكن ليس ثمة من قصص شعبية ترتبط بها.

(1) أو السمنْدر، وهي دابة تعيش في الماء وعلى اليابسة وقيل إنها تفرز مادة تطفئ النار ولذلك زعموا أنها لا تحترق (م).

Twitter: @ketab_n

برغم كثرة الينابيع المتدفقة والمليئة بالأسماك في بلاد الشيروكي، والتي يفيد منها الهنود بحرية، فإن المعتقدات التقليدية المرتبطة بالأسماك تبقى قليلة. تُعزى العديد من أمراض «الحلم»، الناتجة في الحقيقة عن سوء الهضم، إلى أرواح أسماك منتقمة، ويحاول الطبيب في العادة التوصل إلى علاجها من خلال استحضار بعض الأسماك الأكبر والطيور الآكلة للأسماك لطرد تلك الأرواح.

ويستمدّ جدول توكو، في مقاطعة مونرو، تنيسي، اسمه من السمكة الأسطورية الضخمة داكوا، التي تعد أباً لقبيلة الأسماك كلها، والتي ذُكر أنها كانت تحيا في السابق في نهر تنيسي الصغير في ذلك الوقت. ساد اعتقاد أن سمكة تدعى أوغونستي لي، «ذات القرون»، والتي تظهر في الربيع فقط، وقد تحولت فيما بعد إلى سحلية غيغا–تسوها لي، المذكورة من قبل. توصف هذه السمكة بأن لها قروناً أو نتوءات فوق أنفها وبقعاً حمراء جميلة فوق رأسها، وبأن العديد من الأسماك الحمراء الأصغر تقوم بخدمتها ومرافقتها، حيث تتولى تلك الأسماك جميعاً، بمن فيها أوغونستي لي، تجميع الطبقات الصغيرة في المياه. مع تقدم فصل الربيع تختفي هذه السمكة حيث يعتقد حينذاك أنها تحولت إلى

Twitter: @ketab_n

سحلية غيغا–تسوها لي، التحول المذكور الذي يبدأ من رأسها وينتهي في ذيلها. إنها «مدحرجة الحجارة» التي تبرز بلونها المُشع في أول الربيع، لكنها تفقد لونها ذاك بعد الوضع. ويحرم لحم سمك الخنزير الصابر، وهو سمك خمول، على لاعبي الكرة الذين يجب أن يحتفظوا بنشاطهم. ويدعى بلح البحر[1] الذي يقيم في المياه العذبة داغو نا، وهو اسم يطلق على نوع من البثور يخرج في الوجه وذلك استحضاراً لشبه متوهم بينهما. يقوم لاعب الكرة بفرك نفسه بجلد الأنقليس[2] كي يغدو زَلِقاً يصعب الإمساك به، وبحسب مخطوطة واهنينوهي، فقد كانت النساء في ما مضى يربطن شعورهن بجلد الأنقليس المجفف كي تكتسب المزيد من الطول. ويستخدم إربيان[3] أحمر كبير يُدعى تسيسكا غيلي، وهو أكثر شبهاً بالكركند، في حك الأطفال الصغار كي يُمنحوا قبضة قوية، حيث تحك برفق لمرة واحدة كل يد من يدي الطفل بفك سمكة حية من تلك الأسماك. وتقوم الأم بمعالجة ابنها على هذا النحو حين يظهر الطفل أنه بات بوسعه التقاط شيء بواسطة إبهامه وإصبعه. إلى ذلك، فإن الأمر كما يقال يجعل الطفل مشاكساً ميالاً للعض.

(1) ضرب من الرخويات (م).
(2) ويقال له الإنكليس، أو الجِريث، وهو ضرب من السمك (م).
(3) جراد البحر (م).

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إلى الحشرات فثمة المزيد مما يمكن قوله عنها. الاسم الشامل لجميع الحشرات والديدان الصغيرة هو تسغويا، وبحسب الأطباء الذين استبقوا نظرية الجراثيم بقرون عدة، فإن التسغويا هذه مسؤولة تقريباً عن كل اعتلال جسدي يصيب البشر ويتعذر رده إلى أسغينا الحيوانات الأكبر، أو إلى العرافة. سبب ذلك واضح، إذ ثمة أعداد وافرة منها في الأرض وفي الجو حيث يقوم الإنسان دائماً بالقضاء عليها على نحو شامل وبلا شفقة ومن دون أن يعلم حتى، فتعد هذه طريقتها في أخذ الثأر.

تُجْمَلُ الخنافس في تصنيف واحد، تحت اسم معناه «الحشرات التي من دون قواقع». وتدعى خنفسة الماء الصغيرة، أو البقة المَرِحة دويوني سي، «جدة القُنْدس»، وبحسب قصص الخلق فقد قامت بإخراج الأرض الأولى من تحت المياه. ويحكى أن خنفساً محدداً ذا رأس أخضر وقرنين كان كلب فتيان الرعد، ويُعد البريق المعدني في مقدمة رأسه ناتجاً عن الارتطام بالمقامرين الأسطوريين المعروفين أونتسايي، «نحاس». وتلقّب بقة يونيو، الخنفسة الخضراء الأخرى، بهذا الاسم، غير أنها تُعرف في كثير من الأحيان بالاسم الغريب تو يا - دي سكالاو ستي سكي، أو «ذاك الذي يجعل

Twitter: @ketab_n

النار تلهب الفول». يرقانتها هي الدويدة المترئسة للاجتماع الذي تعقده الحشرات بغية التخطيط للقضاء على الجنس البشري في إحدى الحكايات. ويدعى الخنفس ذو القرون الكبيرة تسيستو نا، «الإرْبِيان»، آ وي، «غزال»، أو غالاغي نا، «الظبي»، نظراً لقرونه المتشعبة. ويدعى الخنفس النهاش تولسكو وا، «ذاك الذي ينهش برأسه».

وعندما تبدأ الـ لولو، أو ذبابة الجرة بالغناء في منتصف فصل الصيف، يقولون حينها: «ذبابة الجرة قد أحْضَرَت الفول»، حيث تعد أغنيتها بمثابة إشارة على نضوج الفول وعلى أن الذرة الخضراء ما عادت بعيدة المنال. وحين يُسمَع صوت الجندب بعد ذلك بوقت قصير يقولون: «الجندب قد أحضر خبز الأذن المشوية». الجُدْجُدْ[1] (تالا تو) يُدعى في أكثر الأحيان «الحلاق» (ديتاستايي سكي)، نظراً لعادته في قضم الشعر من الفرو، وحين يلتقي الشيروكي رجلاً جُز شعره بغير انتظام فإنهم يسألونه أحياناً مماز حين: «هل قَص الجُدْجُد شعرك؟». ويقال إن أشخاصاً معينين يقومون باحتساء شاي مصنوع من الجداجد وذلك كي يجيدوا الغناء.

(1) دويبة على خلقة صغير الجراد وتُسمى صرار أو صرصار الليل (م).

Twitter: @ketab_n

الجُذْجُد الخُلد يُدعى هكذا لأنه يَحْفُر أنفاقاً في الأرض وله مخالب كمثل يدٍ تصلح للحفر. ويعرفه الشيروكي باسم غول كوغي، العبارة التي تعني حرفياً «سبعة»، لكنه اسم يحاكي صوته على الأرجح[1]. ويذيع صيته في أوساطهم على أنه متيقظ، يصعب القبض عليه، وعلى أنه مغن ممتاز «لا يُخطئ البتة». ومثل الإرْبيان والجُذْجُد، فإنه يلعب دوراً مهماً في تحضير الناس للقيام بواجباتهم في الحياة. وتحك ألسنة الصغار البطيئين في تعلم النطق بمخلب الغول كوغي، حيث تُجرى العملية عن طريق التقاط الحشرة المذكورة حية باليد، عل ذلك يساعدهم على التعلم بوقت قصير النطق بوضوح والفصاحة والحكمة وسلاطة الحديث إذ يكبرون في السن، والذكاء المتوقد الذي يجعلهم يتذكرون، من دون جهد، كل شيء كانوا قد سمعوه. قد تحقق النتيجة المرجوة إياها بالنسبة لشخص ناضج، لكن بصعوبة أكبر، إذ ينبغي في تلك الحالة حك داخل الحنجرة على مدى أربعة صباحات متتالية، حيث تُدخَل الحشرة إلى الحنجرة بواسطة الأصابع ويُعاد سحبها بالطريقة عينها، فيما يتمّ طوال تلك الفترة التشدد في الامتناع عن كل المحرمات، وإلا فلن يكون للعملية أي تأثير. وفي بعض الحالات، توضع الحشرة في

(1) Onomatope

Twitter: @ketab_n

زبدية ماء صغيرة طوال الليل، فإن بقيت حية حتى الصباح يتم إخراجها من الماء الذي يقدّم للمريض كي يشربه بعد أن يكون الغول كوغي قد مُنح حريته.

ويقوم كثيرون من الشيروكي بتربية النحل، هذا بالإضافة إلى النحل البري الذي يصطاد في الغابات. على الرغم مما يقولونه من أن النحل جاء في الأصل مع البِيض، فإنه لا يوجد ذكر في تراث الشيروكي لزمن ما كانوا يعرفون فيه النحل، ومع ذلك لا يوجد على ما يبدو أي قصص شعبية ترتبط به. وتحمل «النملة البقرة» وهي نملة لاسعة كبيرة حمراء، اسماً مناسباً هو داسون تالي، «النملة اللاسعة»، لكن ونظراً لطواعية جسدها فإنها تُدعى في العادة نون يونو وي، «رداء الحجر»، تيمناً بكائن أسطوري مشهور. برغم ما قد يبدو عليه الأمر من غرابة، فليس ثمة من قصص شعبية ترتبط بذبابة النار ولا بالدودة المتوهجة، فيما لا يظهر العنكبوت، البارز جداً في أساطير قبلية أخرى، سوى في أسطورة وحيدة من أساطير الشيروكي، إذ يقوم بجلب النار عبر المياه. في الشعائر فإنه يُستحضر في العادة كي تُوقع في شرك حباله روح ضحية يرغب العراف في إخضاعها لرُقَيَاته. وبالاستناد إلى تشبيه متوهم بالشكل فإن اسم العنكبوت، كا ناني سكي،

Twitter: @ketab_n

يطلق أيضاً على ساعة اليد أو ساعة الحائط. وتدعى الفراشة الصغيرة ذات اللون الأصفر، والتي تطير حول النار في الليل، تون تاو، الاسم الذي يعني أنها تدخل في النار وتخرج منها، وحين ترفرف أخيراً على نحو قريب جداً من اللهب وتسقط فيه يقول الشيروكي إن الـ «تون تاو تذهب للسرير». نظراً لانجذابها إلى النار فإنها تُستحضر من قبل الطبيب لمواجهة جميع «أمراض النار»، بما فيها تقرح العيون ولسع الصقيع.

Twitter: @ketab_n

لماذا جاء رأس الضفدع[1] مخططاً

بحسب إحدى المرويات فقد كان الضفدع على الدوام يهزأ من المقامر العظيم أنتساي بي، «نُحاس»، إلى أن غضب الأخير في النهاية منه وتحداه في مواجهته بلعبة الـ غاتايا ستي (الدولاب والعصا)، حيث يُخدش خاسر المباراة في جبينه. فاز نُحاس، كعادته دوماً، وتُظهر الخطوط الصفراء على رأس الضفدع آثار أصابع المقامر التي خدشه الأخير بها.

قصة أخرى تقول إن الضفدع طلب من عراف القيام بتزيين رأسه بخطوط صفراء (نحاسية) وذلك كي يجعله أكثر أناقة من امرأة جميلة كان يتودد لها.

Twitter: @ketab_n

(1) ضفدع الـ «بول فروغ»، أو رأس الثور، وهو ضفدع أميركي كبير (م).

عشيقة الضفدع[1]

كان هناك شابٌ يتودد لفتاة تبادله الإعجاب، لكن والدتها كانت تعارضه بشدة حتى إنها منعته من الاقتراب من البيت. أخيراً قام بصنع بوق من اليَقْطِين وفي الليلة التالية اختبأ قرب النبع إلى أن جاءت المرأة المسنة كي تملأ ماء. وفيما كانت تغرف الماء وضع الشاب البوق على شفتيه ودمدم بصوت عميق كمثل صوت الضفدع:

ياندا سكا غا هانياهو سكا

ياندا سكا غا هانياهو سكا

العيّاب[2] سوف يموت

العيّاب سوف يموت

(1) الـ «بول فروغ» (م).
(2) الكثير الانتقاد للناس (م).

Twitter: @ketab_n

ظنت المرأة أن هذا ضفدع عراف، وخافت كثيراً فأوقعت مِغرفتها وركضت عائدة إلى البيت كي تخبر الناس. رأى الجميع أن ذلك كان تحذيراً لها لتوقف تدخلها في شؤون ابنتها، فقامت بمنح الأخيرة موافقتها، وبذلك حظي الشاب بزوجته.

هناك قصة أخرى عن فتاة كانت في كل يوم، حين تذهب إلى النبع لجلب الماء، تسمع صوتاً منشداً، كانو نو تا تساهييسي، كانو نو تا تساهييسي، «سوف يتزوجك ضفدع، سوف يتزوجك ضفدع». حارت في أمرها كثيراً إلى أن شاهدت في أحد الأيام، حين ذهبت تملأ الماء، ضفدعاً جالساً على حجر قرب النبع، وقد اتخذ فجأة هيأة رجل وقام بسؤالها الزواج منه. وافقت واصطحبته معها إلى البيت. لكن وعلى الرغم من هيأة الرجل التي كان عليها، فقد كان في وجهه نظرة ضفدع مريبة، فبغضته عائلة الفتاة وأقنعتها في النهاية بالتخلص منه. أخبرته بذلك ومضى مغادراً، غير أنهم حين ذهبوا إلى النبع مرة أخرى سمعوا صوتاً يقول: ستي تسي تايا هوسي، ستي تسي تايا هوسي، «ابنتكم سوف تموت، ابنتكم سوف تموت»، وقد حصل ذلك بعد وقت قصير.

Twitter: @ketab_n

كما يروي بعضهم، فقد كان العاشق شرغوفاً[1] اتخذ هيأة بشرية مُحتفظاً بفم الشرغوف وحسب. وليخفي الأمر كان على الدوام يرفض تناول الطعام مع العائلة، حيث كان يجلس مديراً ظهره إلى النار ووجهه مقطب، زاعماً أنه يعاني من ألم الأسنان. اشتبهت زوجته في الأمر أخيراً، وحين أدارته فجأة إلى جهة النار، ظهر فم الشرغوف الذي سَخِر منه الجميع، ما جعله يغادر البيت إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

(1) الشرغوف: فَرْخ الضفدع (م).

تحذير الجندب

كان صيادان مُعسكرين في الغابة يحضّران عشاءهما في إحدى الليالي حين شرع جندب في الغناء بالقرب منهما. قال أحدهما ساخراً: «كوا! إنه يغني من دون أن يعلم بأنه سوف يموت قبل انقضاء الموسم». فأجاب الجندب: «كوا ني وي (محاكاة لصوته)، أوه، تقول هذا إذن، لكن عليك ألا تتباهى. فسوف تموت قبل ليلة الغد». في اليوم التالي فوجئ الصيادان بالعدو وقد قتل الصياد الذي سخر من الجندب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصص العجائب

Twitter: @ketab_n

أونتساي يي، المقامر

يعيش الرعد في الغرب، أو في جنوب الغرب بعض الشيء، قريباً من حيث تغرق الشمس خلف المياه. في سالف الأيام كان يقوم برحلة إلى الشرق أحياناً، وذات يوم بينما هو عائد من إحدى تلك الرحلات ولد طفل في الشرق، قال الناس إنه ابنه. عندما كبر الصبي اكتُشف أنه مصاب بتقرح الغُدَب[1] في كل أنحاء جسده، وقالت له والدته يوماً: «والدك الرعد طبيب عظيم. وهو يعيش في أقصى الغرب، لكن إذا وجدته فهو قادر على شفائك».

فانطلق الصبي للبحث عن والده ولكي يُشفى. سافر طويلاً نحو الغرب، سائلاً كل من لاقاه عن المكان الذي يحيا فيه الرعد، إلى أن راحوا أخيراً يخبرونه بأنه بات على مسافة قريبة قدماً. أكمل رحلته وبلغ أونتيغوهي، في تنيسي، حيث عاش أونتساي يي «نُحاس». حينذاك كان أونتساي يي قد أصبح مقامراً عظيماً معتمداً في عيشه على ذلك. فقد كان هو من اخترع

(1) ويقال له داء الملِك، وهو سُل الغدد اللمفاوية (م).

Twitter: @ketab_n

لعبة الغاتايوستي التي نلعبها بواسطة دولاب حجري وعصا. عاش أونتساي يي عند الجانب الجنوبي من النهر، وأخذ يتحدى كل من يسلك تلك الطريق في اللعب ضده. الصخرة المنبسطة الكبيرة، بخطوطها وأخاديدها حيث كانوا يدحرجون الدولاب عليها، ما زالت هناك، بالدواليب إياها والعصا التي تحجرت. وقد فاز تقريباً في كل مرة، لأنه كان واسع الحيلة، وقد ملأ بيته بكل ضروب الأشياء الجميلة. وفي بعض الأحيان كان يخسر، فيراهن على كل ما يملكه، حتى حياته، إلا أن الفائز لا يأخذ شيئاً مخافة المتاعب، إذ أن أونتساي يي كان يعرف كيف يتخذ لنفسه هيئات مختلفة، فيهرب على الدوام.

ما إن وقع نظر أونتساي يي عليه حتى سأله أن يتوقف كي يلعبا قليلاً، لكن الصبي قال إنه يبحث عن والده، الرعد، وإنه ليس لديه الوقت للانتظار. قال أونتساي يي: «حسناً، إنه يعيش في البيت التالي، ويمكنك سماعه مُدَمْدِماً هناك على مدار الوقت، فيمكننا أن نلعب مرة أو مرتين قبل ذهابك إليه». قال الصبي إنه لا يملك شيئاً للرهان. قال المقامر: «لا بأس، فلنلعب على بقعك الجميلة». قال هذا كي يُغضب الصبي فيجعله يلعب، لكن الأخير استمر بالقول إن عليه الذهاب أولاً للعثور والده، وسوف يعود بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

مضى في رحلته، وسرعان ما وصلت الأخبار للرعد بأن صبياً يدّعي أنه ابنه يبحث عنه. فقال الرعد: «لقد سافرت في أراض كثيرة ولدي العديد من الأبناء. أحضروه إلى هنا وسوف نعرف من دون إبطاء». فجلبوا الصبي إليه، وقد أشار له الرعد إلى مقعد وطلب منه الجلوس. كان تحت الدثار على المقعد أشواك طويلة جارحة من شجرة خروب العسل، وقد جعلت رؤوسها منتصبة كلها، لكن الصبي لم يصب بأي أذى منها حين جلس، فعرف الرعدُ حينذاك أنه ابنه. سأل الرعد الصبي عن سبب مجيئه. فقال: «ثمة قروح في أنحاء جسدي كلها، وقد أخبرتني أمي بأنك والدي وأنك طبيب عظيم، وأن بوسعك شفائي إن أتيت إليك».

قال الوالد: «أجـل، أنا طبيب عظيم، وعما قليل سوف أبرئك».

كان ثمة قِدْر كبيرة في الركن فطلب من زوجته أن تملأها ماء وتضعها فوق النار. حين أخذت الماء تغلي، وضع فيها بعض الجذور، ثم حمل الصبي ووضعه فيها. ترك القِدْر تغلي لوقت طويل حتى ليظن المرء أن اللحم الذي يكسو عظام الصبي قد سلق، ثم طلب من زوجته أخذ القِدْر وإفراغها في النهر، مع الصبي وكل شيء. نفذت ما طلب منها، وأفرغت القدر، ومنذ

Twitter: @ketab_n

ذلك الحين ظهرت دوامة في المياه هناك، نسميها أون تيغوهي، «قِدْر في المياه». وعلى الضفة فوقها نبت غُبَيْراء[1] وغار الجبل. وحلّت غيمة كبيرة من البخار فوقهما وألفت خطوطاً وبقعاً على لحائهما، وقد صارا على هذا النحو حتى يومنا هذا. عندما انقشع البخار نظرت الزوجة وشاهدت الصبي وقد تشبث بجذور الغُبيْراء حيث مالت تلك الجذور نحو المياه، لكن بشرته حينذاك بدت نضرة. ساعدته في الصعود إلى الضفة، ومضيا معاً إلى البيت. وفي الطريق قالت له: «عندما نصل إلى البيت، سوف يلبسك والدك ثوباً جديداً، وحين يفتح صندوقه ويطلب منك أن تختار الزينة التي تريد احرص على اختيارها من القاع. حينها سوف يرسل في طلب أبنائه الآخرين ليلعبوا الكرة ضدك. أمام البيت ثمة شجرة خروب عسل، فما إن تبدأ بإحساس التعب قمْ بالتسديد عليها وسوف يوقف والدك المباراة، لأنه لا ينوي خسارة الشجرة».

حين دخلا إلى البيت، سر الرجل الكبير برؤية ابنه تام النضارة، فقال: «لقد علمت بأني سوف أتمكن سريعاً من شفاء تلك البقع. الآن علينا أن نُلبِسك». أخرج بذلة جميلة من جلد الظبي بالإضافة إلى حزام وغطاء للرأس، وأشار إلى الصبي أن

(1) أو الغبيراء الأهلية، وهو شجرٌ بعضه حَرَجي وبعضه يغرس للتزيين أو لثماره (م).

Twitter: @ketab_n

يرتديها. ثم فتح صندوقاً وقال: «اختر الآن قلادة وسواراً».

نظر الصبي، وكان الصندوق مليئاً بالأفاعي من كل الأنواع فوق بعضها بعض وقد اشرأبت رؤوسها إلى الأعلى. لم يكن خائفاً، لكنه تذكر ما قالته له المرأة، فدس يده إلى القاع واستل أفعواناً مُجَلجَلاً عظيماً ووضعه حول رقبته كقلادة. دس يده مجدداً أربع مرات متتالية واستل أربع أفاع نحاسية الرأس وجدلها حول معصميه وكاحليه. ثم ناوله والده هراوة حربية وقال له: «عليك الآن بلعب مباراة في الكرة مع أخويك اللذين يكبرانك. إنهما يعيشان بعيداً من هنا، في الأرض المظلمة، ولقد أرسلت في طلبهما».

قال الوالد مباراة كرة قدم، لكن ما قصده أن على الصبي القتال من أجل حياته. حضر الشابان، وكان كلاهما أكبر من الصبي وأقوى منه، غير أنه لم يخف وقام بقتالهما. قصف الرعد ولمع البرق مع كل تسديدة، إذ كانا الرعود الفتية، والصبي نفسه كان البرق. أخيراً شعر بالإنهاك جراء وقوفه وحيداً بمواجهتهما مدافعاً عن نفسه، وتظاهر في توجيه تسديدة إلى شجرة خروب العسل. حينها أوقف والده القتال لأنه خاف من أن يشق البرق الشجرة، وقد رأى أن الصبي مقدام وقوي.

روى الصبي لوالده كيف أن أونتساي بي تحداه للعب معه،

Twitter: @ketab_n

وكيف أنه عرض عليه حتى المراهنة على البقع التي على بشرته. قال البرق: «أجل، إنه مقامر عظيم وهو يعيش من ذلك، لكني سوف أسعى لفوزك». أحضر الوالد قرعة يقطين صغيرة مثقوبة عند عنقها، وربطها حول رسغ الصبي. في داخل اليقطينة كان ثمة خيط من الخرز، يتدلى أحد أطرافه من خلال الثقب في الأعلى، لكن الخيط في الداخل لم يكن له نهاية. قال له والده: «الآن عدْ في الطريق الذي أتيت منه، وما إن يراك حتى يطلب منك اللعب على الخرز. صحيح أنه من الصعب أن يُهزم، لكنه هذه المرة سوف يخسر كل رهان. حين يصيح طالباً شربة ماء، سوف تدرك بأن همته أثبطت، فاضرب الصخرة حينذاك بهراوة الحرب التي معك، وسينبثق منها الماء، وستتمكنان من اللعب من دون توقف. في النهاية سوف يراهن على حياته، ويخسر. حينها أرسل في طلب أخويك في الحال كي يقتلاه، وإلا فسوف يهرب، فهو شديد الحيلة».

أخذ الصبي اليقطينة وهراوة الحرب وانطلق شمالاً عبر الطريق التي جاء منها. وما إن رآه أونتساي يي حتى ناداه، وحين رأى اليقطينة وخيط الخرز يتدلى منها، أراد اللعب على ذلك الخيط. سحب الصبي الخيط. وقد بدا الأخير بلا نهاية،

Twitter: @ketab_n

فراح يسحبه إلى أن أخرج منه ما يكفي لإقامة دائرة حول الملعب.

قال الصبي: «سوف ألعب مباراة واحدة على هذه في مواجهة رهانك، وحين نفرغ منها يمكننا لعب مباراة أخرى».

بدآ اللعب بالدولاب والعصا وقد فاز الصبي. لم يعرف أونتساي يي ما معنى ذلك، غير أنه مضى في مراهنة أخرى ودعا الصبي إلى مباراة ثانية. فاز الصبي مجدداً، واستمرا باللعب على هذا النحو حتى الظهيرة، وكان أونتساي يي قد خسر كل ما يملكه تقريباً وأحبطت عزيمته. كان الطقس شديد الحرارة، فقال: «أنا عطشان»، وأراد أن يتوقف لبعض الوقت كي يشرب. «لا»، قال الصبي، وضرب الصخرة بهراوته، فخرجت الماء وشربا منها. استمرا باللعب إلى أن خسر أونتساي يي كل جلود الظبي وأعمال الخرز، وريش النسر والزخارف التي يملكها، وقد عرض في النهاية المراهنة على زوجته. لعبا على الزوجة وقد ربحها الصبي. حينها أحس أونتساي يي باليأس وعرض المراهنة على حياته. «إن فزت أنا، أقتلك، وإن فزت أنت، فبإمكانك أن تقتلني». لعبا وفاز الصبي.

قال أونتساي يي: «دعني أذهب وأخبر زوجتي ليكون

Twitter: @ketab_n

بوسعها استقبال زوجها الجديد، ثم بإمكانك حينذاك أن تقتلني». دخل إلى البيت، غير أن الأخير كان له بابان، وعلى الرغم من انتظار الصبي لوقت يسير فإن أونتساي يي لم يعاود الخروج. عندما ذهب أخيراً كي يبحث عنه وجد أن المقامر قد خرج من الباب الخلفي وكاد أن يغيب عن الأنظار متوجهاً شرقاً.

هرع الصبي إلى منزل والده وطلب مساعدة أخويه. أصطحب الأخوان كلبهما - الخُنْفُس الأخضر ذو القرنين - وحثا الخطى في إثر المقامر. ركض الأخير مسرعاً وما لبث أن غاب عن الأنظار، وقد تعقبه الشقيقان بأقصى سرعة. بعد ذلك بوقت قليل التقيا عجوزاً تصنع الخزف وسألاها إن كانت قد رأت أنتساي يي وأجابت بالنفي.

قال الشقيقان: «لكنه جاء من هنا».

قالت العجوز: « إذن ربما يكون قد جاء في الليل، إذ أني كنت هنا طوال النهار». كانا على وشك الذهاب في طريق أخرى حين قام الخُنْفُس، الذي كان يدور في الهواء فوق العجوز، بالوثب عليها وضربها على جبينها، الذي رن كالنحاس - أونتساي يي! حينها أدركا أن ذلك كان

Twitter: @ketab_n

«نحاس» وانقضا عليه، غير أنه قفز بهيئته الصحيحة وانطلق راكضاً بسرعة كبيرة جعلته يغيب عن الأنظار من جديد. كان الخُنْفُس قد سدد ضربة قوية أدت إلى خدش «النحاس»، هذا الذي يمكننا رؤيته على مقدمة رأس الخُنْفُس إلى اليوم.

تابعا اللحاق به ومرا بعجوز جالس على قارعة الطريق يصنع غليوناً من حجر. سألاه إن رأى نحاس عابراً من هذه الطريق فقال لا، غير أن الخُنْفُس - الذي يستطيع معرفة نحاس مهما كانت هيئته - قام مرة أخرى بضرب الرجل على جبينه الذي رن كالمعدن، فقفز المقامر بهيئته الصحيحة واستطاع الابتعاد قبل أن يتمكنوا من الإمساك به. ركض باتجاه الشمال حتى بلغ المياه العظيمة، حينها ركض باتجاه الشمال حتى بلغ طرف العالم، وكان عليه مرة أخرى أن يتجه إلى الغرب. اتخذ كل الهيئات كي يضللهما في الطريق، لكن الخُنْفُس الأخضر عرفه على الدوام، وأوغل الأخوان في إجهاده حتى لم يعد بوسعه الاستمرار في الجري، وفي النهاية قبضا عليه ما إن بلغ طرف المياه العظيمة حيث تهبط الشمس.

قيدا يديه وقدميه بشجرة وثقبا صدره بوتد طويل غرساه بعيداً في المياه العميقة. في أعلى العمود وضعا غرابين كي يحرساه

Twitter: @ketab_n

وسميا المكان كاغونيي، «مكان الغراب». غير أن نحاساً لم يمت قطّ، وهو لا يسعه ذلك إلى أن ينتهي العالم، بل يبقى هناك ملقى ووجهه إلى الأعلى. تحت المياه يحاول جاهداً في بعض الأحيان تحرير نفسه، كما تأتي القنادس[1] أحياناً، وهي صديقة له، فتقضم الشجرة كي تحرره. حينذاك يهتز العمود ويزعق الغرابان في الأعلى كا!كا!كا! فتخاف القنادس وتهرب.

Twitter: @ketab_n

(1) القُنْدُس: حيوان مائي لبون من رتبة القواضم، له ذيل مفلطح قوي ولون أحمر قاتم (م).

عش الـ تلا نوا

عند الضفة الشمالية لنهر تنيسي الصغير، في منعطف تحت مصب جدول سيتيكو، بمقاطعة بلاونت، تنيسي، ثمة جرف عال معلق فوق المياه، وهناك، في وسط واجهة الصخرة، يوجد كهف له فتحتان. الصخرة فوق الكهف نائتة إلى الأمام، فلا يمكن مشاهدة مصب الجدول من الأعلى، كما يبدو مستحيلاً بلوغ الكهف من الأعلى أو من الأسفل، على حد سواء. في الصخرة ثمة خطوط بيضاء تمتد من الكهف نزولاً حتى المياه. ويسمي الشيروكي المكان تلا نوا، أي «مكان تلا نووا»، أو الصقر الأسطوري العظيم.

في سالف الأزمنة، في وقت يرجع لأيام قليلة تلت الخليقة، أقام زوج من الـ تلا نوا عشهما في هذا الكهف. وقد نتجت الخطوط البيضاء التي في الصخرة عن الروث النازل من العش. لقد كانا طائرين هائلين، أضخم من أي طيور تعيش في هذه الأيام، وكانا قويين جداً وضاريين. ظلا على الدوام يحلقان فوق

Twitter: @ketab_n

النهر من أوله إلى آخره، وكانا يبلغان القرى ويخطفان الكلاب، كما يخطفان حتى أطفالاً صغار يلعبون قريباً من البيوت. لم يتمكن أحد من بلوغ شهما كي يقتلهما، وحين حاول الناس رميهما بالسهام صداها بمخالبهما.

أخيراً قصد الناس ساحراً عظيماً وعد أن يساعدهم. خاف بعضهم من أن ينتقم طائرا الـ تلا نووا من الناس في حال فشل الساحر في قتلهما، غير أن الأخير قال إنه قادر على تدبر الأمر. صنع الساحر حبلاً طويلاً من لحاء اللِيْن[1]، كما يفعل الشيروكي إلى اليوم، وضمنه عروتين كي يضع فيهما قدميه، وجعل الناس يُدلونَه من أعلى الجرف في وقت علم فيه أن الطائرين العجوزين غير موجودين في عشهما. حين بلغ مستوى فتحة الكهف، كان ما زال غير قادر على الوصول إليه، إذ أن الصخرة فوقه كانت ناتئة، فقام بالتأرجح للوراء وللأمام مرات عدة حتى دنا الحبل بما فيه الكفاية لجعله قادراً على سحب نفسه في الكهف بواسطة عصا معقوفة كان يحملها، فتمكن من تثبيت هذه الأخيرة ببضع شجيرات نابتة عند المدخل. في داخل العش وجد أربعة فراخ، وتناثرت على أرض الكهف عظام مختلف أنواع الحيوانات التي حملها الصقران إلى هناك. سحب الساحر الفراخ من العش

(1) الواحدة «لِيْنَة»: كل شيء من النخلة سوى العجوة (م).

Twitter: @ketab_n

ورماها من أعلى الجرف إلى المياه العميقة في الأسفل، حيث قام أفعوان أوكتينا عظيم يحيا هناك بالإجهاز عليها. في تلك اللحظة رأى الطائرين العجوزين مقبلين، وكاد أن يدهمه الوقت قبل أن يتمكن من أن يسبقهما ويتسلق أعلى الصخرة مرة أخرى.

عندما وجدا العش خالياً تملكهما الغضب، وحاما مراراً في الجو إلى أن شاهدا الأفعوان يرفع رأسه من المياه. حينها انقضا نازلين عليه، وإذ قبض أحدهما بمخالبه على الأفعوان وطار به مبتعداً في السماء، قام الثاني بضربه وتمزيقه إرباً حتى لم يتبق منه شيء. كانا مرتفعين جداً في السماء وقد حفرت قطع الأفعوان حين سقطت ثقوباً في الصخرة، وهي ما زالت ماثلة للعيان إلى الآن، هناك في المكان الذي ندعوه «حيث قام الـ تلا نوا بتمزيقه»، في مقابل مصب سيتيكو. بعد ذلك حام طائرا الـ تلا نوا في الجو وارتفعا أكثر وأكثر إلى أن غابا عن الأبصار، ولم يشاهدهما أحد منذ ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

الصياد والـ تلا نوا

في أحد الأيام كان صياد يجول في الغابة ورأى تلا نوا يحوم فوق رأسه فحاول الاختباء منه، لكن الطائر العظيم كان قد شاهده حينذاك، وهبط نازلاً عليه غارساً براثنه في صُرة الصياد، وحمله إلى أعالي الجو. خلال طيرانه قام الـ تلا نوا، الذي كان طائراً مختلفاً، بالتحدث مع الصياد وقال له ألا يخاف، وإنه لن يؤذيه، وإن جل ما يريده منه هو البقاء قليلاً مع فراخه كي يحرسها حتى تكبر ويصبح بإمكانها مغادرة العش. حطا أخيراً عند مدخل الكهف في واجهة الجرف العالي. في الداخل كانت المياه تدلف من السقف، وفي جوف الكهف كان ثمة عش من أغصان يضم طائرين صغيرين. أنزل الـ تلا نوا الصيادَ المسن ثم مضى طائراً، وما لبث أن عاد بغزال قُتل حديثاً، فعمل على تمزيقه إرباً، مقدماً القطعة الأولى منه للصياد، ومطعماً بعد ذلك الصقرين الصغيرين.

Twitter: @ketab_n

بقي الصياد في الكهف أياماً عدة إلى أن بلغ الطائران الصغيران أول الكبر، وفي كل يوم كان الصقر الكبير، وهو أمهما، يطير مغادراً العش ويعود في المساء بغزال أو دب، كان على الدوام يُعطي أول قطعة منهما للصياد. هاج شوق الأخير لرؤية داره من جديد، لكن الـ تلا نوا استمر في ثنيه عن ذلك، وفي القول له أن ينتظر قليلاً بعد. في النهاية قرر الصياد الهرب من الكهف وقام بوضع خطة لذلك. في الصباح التالي، بعد أن غادر الطائر الكبير، جر أحد الطائرين الصغيرين إلى مدخل الكهف وربط إحدى رجليه بطوق أخرجه من صرة الصيد التي بحوزته. ثم ضربه على رأسه مرات عدة بواسطة فأسه التمْهُوك[1]، من جهتها غير المسننة، إلى أن داخ وخارت قواه، ثم دفع بنفسه وبالطائر معاً، من حافة الصخرة، إلى الجو.

هويا من علو شاهق إلى الأسفل نحو الأرض، لكن الهواء الآتي من الأسفل بسط جناحي الطائر، فبدا الأمر وكأنهما يطيران. حين استعاد الطائر وعيه حاول الطيران صاعداً نحو العش، غير أن الصياد عاود ضربه بواسطة بلطته إلى أن داخ وفقد وعيه مجدداً. هبطا أخيراً أعلى شجرة حوْر، وقام الصياد

(1) التمْهُوك هو فأس خفيفة يتخذها هنود شمال أميركا سلاحاً وأداة (م).

Twitter: @ketab_n

حينها بحل الطوق من رِجل الطائر الصغير وتركه يطير مبتعداً، بعد أن انتزع ريشة من جناحه. نزل عن الشجرة ومضى إلى داره في القرية، لكنه حين بحث عن الريشة في صرته فقد وجد حجراً بدلاً منها.

Twitter: @ketab_n

أو تلون تا، إصبع الرمح

في زمان موغل في القدم - هيلاهي يو - عاشت في الجبال امرأة رهيبة، بالغة الفظاعة، كانت تتغذى على أكباد البشر. وكان في وسعها اتخاذ أي شكل أو هيئة يخدمان غرضها، أما هيئتها الحقيقية فقد كانت تشبه إلى حد كبير هيئة امرأة عجوز، سوى أن جسدها كله كان مكسواً بجلد صلب كمثل الصخر، فلا يجرحه أو يخترقه أي سلاح، كما كان لها في يدها اليمنى سبابة حجرية طويلة من عظم، تشبه المِخرز أو السنان[1]، تطعن بها كل من تقترب منه بما فيه الكفاية. لهذا السبب فقد دُعيت أو تلون تا، «إصبع الرمح»، ونظراً لجلدها الحجري دُعِيت، في بعض الأحيان، نون يونو إي، «رداء الحجر». كان ثمة وحش آخر برداء حجري، يقتل الناس أيضاً، بيد أن هذه قصة أخرى.

كان لإصبع الرمح سلطان على الحجر فيتسنى لها بسهولة رفع صخور هائلة وحملها، ولصقها ببعضها بعض وذلك بمجرد

(1) السنان: نصل الرمح (م).

Twitter: @ketab_n

ضرب صخرة بأخرى. ولكي تجتاز البلاد الوعرة بسهولة أكبر، شرعت بإقامة جسر حجري عظيم من نونيو تلو غون يي، «صخرة الشجرة»، في هيواسي، ليعبر نحو سانيغيلا غي (جبل الناحية البيضاء)، فوق السلسلة الزرقاء، وقد بدأت بذلك من أعلى «صخرة الشجرة» حين صعق البرق هذه الأخيرة وشتت نثرها في كافة أنحاء السلسلة الجبلية، وما زال النثر ذاك مرئياً لأولئك الذاهبين إلى هناك. كانت إصبع الرمح تطوف عبر الجبال، قرب رؤوس الينابيع وفي مسالك نانتاهالا[1] المعتمة، جائعة على الدوام تبحث عن ضحايا. وكان موقعها المفضل في تنيسي يقع بالقرب من ممر جبلي في الطريق حيث ينحدر جبل تشيلهووي نحو النهر في الأسفل.

في بعض الأحيان كانت امرأة عجوز تدنو من طريق يقطف الأطفال على مقربة منه الفراولة، أو يلعبون قريباً من القرية، وكانت لتقول لهم متوددة: «تعالوا يا أحفادي، تعالوا إلى جدتكم، ودعوني أسرّح شعوركم». حين تسارع إحدى الفتيات الصغيرات وتضع رأسها في حضن العجوز، كي تلقى الحنان ويُسرح شعرها، فإن الأخيرة تقوم بإيغال أصابعها برفق في

(1) نانتاهالا تعني «بلاد شمس الظهيرة»، وهي منطقة جبال وأنهار في ولاية نورث كارولينا (م).

Twitter: @ketab_n

شعر الطفلة حتى تغفو، حينها تقوم بطعن الصغيرة بقلبها أو في مؤخرة رقبتها بمخرز إصبعها الطويل الذي تكون قد أخفته تحت ردائها. ثم كانت تنتزع كبدها وتأكله.

كانت العجوز تدخل بيتاً عبر اتخاذها هيئة واحد من أفراد العائلة التي تسكنه، إذ يتفق أن يكون الأخير خارج البيت لبعض الوقت، فتتحين فرصتها لتطعن شخصاً بإصبعها الطويل وتنتزع كبده. كان بوسعها طعنه من دون انتباه أحد، حتى إن الضحية نفسه لم يكن ينتبه إلى ذلك في أغلب الأوقات، حين تطعنه – إذ أنها لا تكون قد تركت أثراً لجرح ولا تسببت بألم – بل يتابع الاهتمام بشئونه، إلى أن يبلغه الضعف فجأة فيبدأ بالانحلال بالتدريج، وكان موت ذاك المطعون محتوماً على الدوام، إذ أن إصبع الرمح تكون قد انتزعت كبده.

حين يخرج الشيروكي في الخريف، على جاري عادتهم، لإحراق أوراق الأشجار المتناثرة في الجبال، وذلك كي يلموا الكَسْتناء عن الأرض، فإنهم لا يكونون في مأمن البتة، إذ أن الساحرة العجوز تراقب على الدوام، وهي ما إن ترى الدخان متصاعداً حتى تدرك وجود الهنود في المكان، فتنسل محاولة مفاجأة أحدهم والاستفراد به. لهذا فهم يحاولون، بقدر

Twitter: @ketab_n

الإمكان، البقاء معاً ويحرصون كثيراً على إبعاد كل غريب عن قريتهم. لكن إن ذهب أحدهم إلى النبع كي يشرب، فقد يعود ويجلس معهم وقد صار آكلة الأكباد، من دون أن يعرفوا ذلك قطّ.

قد تتخذ العجوز في بعض الأحيان هيئتها الحقيقية، ومرة أو مرتين شاهد صياد، كان يرتحل وحيداً بعيداً عن القرى، عجوزاً لها يد غريبة تجول في الغابات مغنية لنفسها بصوت خفيض:

أوي لا نا تسيكو سو سا ساي

الكبد، أنا آكله. سو سا ساي

لقد كانت في الواقع أغنية جميلة لكنها جعلته يرتجف، فقد علم أنها آكلة الأكباد، فأسرع مبتعداً من دون جلبة ، قبل أن تتمكن من رؤيته.

أخيراً عقد مجلس كبير لرسم بعض الخطط بغية التخلص من أو تلون تا قبل أن تفني الجميع. تقاطر الناس من كل الأنحاء، وبعد مناقشات كثيرة تقرر أن السبيل الأمثل سيكون الإيقاع بها في شرك لكي يتسنى للمحاربين كلهم مهاجمتها في وقت واحد. فقاموا بحفر حفرة عميقة في وسط الطريق وغطوها بالتراب

Twitter: @ketab_n

والحشائش لتبدو الأرض كأنها لم تمس. ثم أشعلوا ناراً كبيرة في أجمة قرب الطريق واختبأوا بين أشجار الغار، إذ أدركوا أنها ستأتي ما إن ترى الدخان.

صدق توقعهم وسرعان ما شاهدوا العجوز آتية عبر الطريق. بدت على هيئة امرأة مسنة هم على معرفة جيدة بها في القرية، وعلى الرغم من أن عدداً من الرجال الأكثر حكمة أرادوا التسديد عليها، فقد تدخل آخرون منهم، إذ أنهم لم يريدوا أذية أحد ممن معهم. تقدمت العجوز ببطء على الطريق، مخبئة إحدى يديها تحت ردائها، إلى أن وطأت في الشرك وسقطت في الحفرة العميقة. حينها، وفي الحال، أظهرت طبيعتها الحقيقية، وبدل هيئة العجوز الواهنة التي كانت تبدو عليها، صارت أو تلون تا الرهيبة بجلدها الحجري، وبإصبعها المخرز المسنن الذي لاح في كل اتجاه بحثاً عمن يطعنه.

وثَبَ الصيادون من الآجام وطوقوا الحفرة، لكنهم إذ أطلقوا سهامهم بكثافة، وبقدر ما استطاعوا، فإن السهام تلك ضربت درع الساحرة الحجري ولم تفعل سوى أن انكسرت وسقطت خائبة عند قدميها، فيما أخذت الساحرة العجوز

Twitter: @ketab_n

توبخهم محاولة تسلق الحفرة للخروج منها والوصول إليهم. ظلوا بعيدون عنها، وكانوا ما زالوا يبددون سهامهم حين حط طائر القرقف الصغير، أوتسو غي، على شجرة فوقهم وشرع يغني: «أون، أون، أون». ظنوا أنه كان يقول أون ناهو، قلب، ما يعني وجوب محاولتهم التسديد على قلب الساحرة الحجرية. وجهوا سهامهم إلى حيث ينبغي على القلب أن يكون، إلا أن السهام ارتدت عنها وقد تكسرت رؤوسها الصوان.

ثم قبضوا على الـ أوتسو غي وقطعوا لسانه، وقد غدا لسانه قصيراً منذ ذلك الحين وصار الجميع يعلم أنه كذاب. عندما تركه الصيادون، طار حالاً وارتفع في السماء حتى غاب عن الأبصار ولم يرجع مرة أخرى. القرقف الذي نعرفه اليوم ليس سوى نموذج عن ذاك الآخر.

مضوا في قتالهم من دون نتيجة إلى أن جاء طائر آخر هو تسي كيليلي الصغير، القرقف الأمريكي، فنزل من الشجرة وحط على يد الساحرة اليمنى. رأى المحاربون ذلك كإشارة بوجوب التسديد إلى هناك، وقد أصابوا، إذ أن قلبها كان يقبع في داخل يدها، هذه الأخيرة التي تبقيها مقبوضة، وهي يد

Twitter: @ketab_n

المخرز إياه الذي طعنت به الكثير من الناس. حينذاك تملكها الخوف بالفعل، وأخذت توجه إصبعها الطويل بغضب نحوهم وتقفز في الحفرة من جهة إلى أخرى كي تتفادى السهام، إلى أن أصاب سهم محظوظ في النهاية الموضع حيث يتصل المخرز بالمعصم فسقطت صريعة.

منذ ذلك الحين يُعرف طائر تسي كيليلي بأنه صادق في قوله، وحين يذهب رجل في رحلة، ويأتي هذا الطائر ويحط بالقرب من منزله ويشدو بأغانيه، فإن أحباء الرجل يدركون أنه سيعود سالماً عما قريب.

Twitter: @ketab_n

نون يونو وي، رجل الحجر

هذا ما أخبرني به المسنون عندما كنت صغيراً.

ذات يوم عندما ذهب جميع أهل القرية إلى صيد عظيم في الجبال قام رجل كان يمشي في المقدمة بتسلق قمة سلسلة جبلية شامخة ورأى نهراً كبيراً هناك في الجهة الأخرى. وفيما كان ينظر في البعيد رأى شيخاً يمشي بموازاته في السلسلة المقابلة، ومعه عكازة بدت مصنوعة من صخر ما، وكانت ساطعة مشعة. نظر الصياد ورأى أن الشيخ كان، من حين إلى آخر، يوجه عكازته في اتجاه معين، ثم يسحبها ويشم طرفها.

أخيراً وجهها نحو معسكر الصيد في الجانب الآخر من الجبال، وحين سحب العكازة هذه المرة قام بتنشقها مرات عديدة وكأن بها رائحة زكية، ثم مضى بموازاة السلسلة الجبلية متوجهاً إلى المعسكر. كان يتحرك ببطء شديد، بمساعدة عكازته، إلى أن بلغ آخر السلسلة، فقام حينذاك برمي العكازة في الهواء، فغدت جسراً من صخر مشع يمتد عبر النهر.

Twitter: @ketab_n

بعد أن عبر من فوق الجسر عاد هذا وغدا عكازة من جديد، فتناولها الشيخ وانطلق صاعداً الجبل نحو المعسكر.

خاف الصياد وأحس أن في الأمر أذى، فأسرع نازلاً من الجبل واتخذ طريق العودة الأقصر إلى المعسكر كي يسبق الشيخ في الوصول إليه. عندما وصل وروى قصته قال الساحر إن الشيخ ذاك هو مسخ سافل من أكلة لحوم بشر يدعى نون يونو وي، «المرتدي حجراً»، وهو يعيش في ذلك الجزء من البلاد ويجول دائماً في الجبال بحثاً عن صياد ما، كي يقتله ويأكله. كان من بالغ الصعوبة الهروب منه، لأن عكازته تدله مثل كلب، كما لم يكن قتله ليقل صعوبة، إذ كان جسده مكسواً كله بجلد من صخر صلب. لو أتى إليهم فلَسَوْفَ يقتلهم جميعاً ويأكلهم، ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لكي ينجوا منه. فهو لم يكن يحتمل النظر إلى امرأة تحيض، ولو تمكنوا من الإتيان بسبع نساء يحضن كي يقفن في طريقه ما إن يظهر فإن ذلك سوف يقتله.

سألوا بين جميع النساء، فوجدوا سبعاً منهن كن مريضات على ذلك النحو، وكانت واحدة منهن قد بدأت بذلك لتوها. فتعرين بأمر من الساحر ووقفن بمحاذاة الطريق التي قد يُقبل منها الشيخ. سرعان ما سمعن نون يونو وي آتياً عبر الغابات، متلمساً

Twitter: @ketab_n

طريقه بعكازته الحجرية. ثم وصل إلى حيث تقف المرأة الأولى، وما إن رآها حتى بدأ يصيح: «يو! يا حفيدتي، أنت في حالة مزرية جداً! أسرع متجاوزاً إياها، لكنه سرعان ما التقى المرأة الثانية، وصاح من جديد: يو! يا ابنتي، أنت في حالة فظيعة»، وأسرع متجاوزاً إياها، غير أنه حينذاك كان قد بدأ يتقيأ دماً. أسرع متقدماً والتقى الثالثة والرابعة والخامسة منهن، غير أنه ومع كل واحدة التقاها كانت خطواته تزداد ضعفاً إلى أن بلغ المرأة الأخيرة، التي كانت قد مرضت لتوها، فتدفق الدم من فمه وسقط على الطريق.

حينها قام الساحر بإدخال سبعة أوتاد من أغصان شجرة الحامض في جسده وثبته بالأرض، وحين جاء المساء كوموا جذوعاً كبيرة فوقه وأضرموا فيها النار، وقد تجمع الناس جميعهم حوله كي يشاهدوا. كان نون يونو وي أدا ويهي عظيماً يعرف الكثير من الأسرار، وحينذاك حين اقتربت منه النار بدأ يتكلم، فأخبرهم عن أدوية جميع الأمراض. في منتصف الليل شرع بالغناء، فأنشد أغنيات الصيد لمناداة الدب والغزال وجميع الحيوانات الأخرى في الغابات والجبال. وإذ اشتد لهيب النار استعاراً غار صوته وازداد انخفاضاً، إلى أن طلع ضوء النهار أخيراً، وكانت الجذوع

Twitter: @ketab_n

قد غدت كومة من الرماد الأبيض والصوت كان لا يزال منبعثاً. حينها قال لهم الساحر أن يجرفوا الرماد، ولم يجدوا في الموضع الذي كان فيه الجسد ممدداً سوى وعاء من طلاء وا دي الأحمر وحجر أو لونسو تي السحري. احتفظ الساحر بالحجر لنفسه، ونادى الناس كي يجتمعوا حوله وقام بطلائهم، طلا رؤوسهم وصدورهم بالـ وا دي الأحمر، وصار كل ما يصلي من أجله أي شخص، أكان ذلك من أجل التوفيق بالصيد أو المهارة في العمل، أو طول العمر، فإنه كان يعطى له في الحال.

Twitter: @ketab_n

الصياد في داخل الـ داكوا

في سالف الأيام كانت هناك سمكة عظيمة تدعى داكوا، تعيش في نهر تنيسي حيث يلتحق جدول توكو في داكوا، «مكان الـ داكوا»، فوق مصب تيليكو، وقد كانت تلك السمكة بالغة الكبر قادرة على أن تبتلع رجلاً بسهولة. ذات يوم كان كَنْوٌ[1] مليئاً بالمحاربين يقطع المسافة بين القرية وبين الجهة الأخرى من النهر، حين ارتفعت الـ داكوا من تحت المركب على نحو مفاجئ وطوّحتهم جميعاً في الهواء. وإذ أخذوا يهبطون من الأعلى قامت بابتلاع أحدهم وغطست به إلى قاع النهر.

وما إن استعاد الصياد وعيه حتى وجد أنه في حال سليمة، غير أن جوف الـ داكوا كان حاراً ومُحتبساً وكاد الصياد أن يختنق. وإذ تلمس طريقه في العتمة اصطدمت يده بالكثير من قواقع بلح البحر[2] التي كانت السمكة قد ابتلعتها، وقد اتخذ

(1) الكَنْوُ: زورق طويل خفيف ضيق يقاد بمِغْدَفٍ، وهو زورق يشتهر به هنود أميركا الشمالية (م).

(2) ضرب من الرخويات (م).

Twitter: @ketab_n

واحدة منها سكيناً وبدأ يشق طريقه للخروج، وسرعان ما استثار ذلك اضطراب السمكة جراء الخدش في داخل معدتها فارتفعت إلى سطح المياه للتزود بالهواء. استمر الصياد في التقطيع إلى أن أدى الألم بالسمكة إلى السباحة ذات اليمين وذات اليسار وسط التيار، صافعة المياه بذيلها ومُزبِدة إياها. كان الثقب في النهاية كبيراً جداً فتسنى للصياد النظر من خلاله إلى الخارج فرأى الـ داكوا حينذاك وقد استراحت في مياه ضَحْلة قرب الشاطئ. رفع نفسه وتسلق خارجاً من طرف السمكة، وقد تحرك بحذر شديد كي لا تلاحظ السمكة الأمر، ومن ثم خاض في المياه الضحلة إلى الشاطئ وعاد إلى القرية، غير أن عصائر معدة السمكة العظيمة كانت قد سفعت كل الشعر في رأسه وغدا أصلع منذ ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

الحكاية نفسها بحسب واهنينوهي

صبي كان والده قد أرسله في مهمة، فلم يشأ الذهاب وهرب إلى النهر. بعد لهوِه بالرمال لبرهة، جاء على متن كَنْو بعض الصبية ممن يعرفهم ودعوه إلى مرافقتهم. انطلق معهم فرحاً بفرصة الفرار، لكن سرعان ما وطأ متن المركب حتى أخذ الكَنْو يميلُ ويتأرجح لسبب غير واضح. خاف الصبية كثيراً، وفي خضم اضطرابهم سقط الصبي الشقي في الماء فابتلعته على الفور سمكة كبيرة. بعد مكوثه في معدتها لبعض الوقت أحس بجوع شديد، وإذ نظر حوله رأى كبد السمكة معلقاً فوق قلبها. لاعتقاده أن الكبد هو لحم جاف، حاول اقتطاع جزء منه بواسطة قوقعة بلح البحر التي كان يلعب بها على الضفة وبقيت في يده. وقد أضعف ذلك السمكة، فتقيأت الصبي.

Twitter: @ketab_n

أتاغا هي أو البحيرة المسحورة

إلى الغرب من منابع نهر أوكونالوفتي، في الأعماق الأكثر وعورة لجبال الضباب[1] العظيمة، والتي تشكل الحدود بين نورث كارولينا وتنيسي، تقع بحيرة أتاغا هي المسحورة، «مكان الغيظ». على الرغم من معرفتهم جميعاً بأنها تقع هناك، فلا أحد من الشيروكي سبق له أن رآها، وذلك لصعوبة الطريق المؤدية إليها، حيث الحيوانات وحدها تعرف كيف تبلغها. إن اقترب من المكان صياد تائه فإنه سوف يعرفه من خلال الأصوات التي تملأ الجو، أصوات آلاف البط البري الذي يطير فوق البحيرة، لكن ببلوغه المكان فإنه لن يجد سوى مسطح جاف، لا طير أو حيوان فيه ولا ورقة عشب، إلا إذا قام الصياد ذاك بشحذ بصيرته الروحية قبل ذلك، عبر الصلاة والصوم والتعبد طوال ليلة كاملة.

(1) «سموكي ماونتينز»، وهي سلسلة جبلية تمتد عند الحدود بين ولايتي تنيسي ونورث كارولينا في جنوب شرق الولايات المتحدة الأميركية (م).

Twitter: @ketab_n

ولأنها لا تُرى، يظن بعض الناس أن البحيرة جفت منذ زمن بعيد، غير أن هذا ليس صحيحاً. إذ أنها يمكن أن تظهر لامرئ تهجّد وصام طوال الليل، وتبدو له في وضح النهار كصفحة مياه أرجوانية واسعة ممتدة، لكن غير عميقة، تغذيها الينابيع المتدفقة من الشعاب العالية حولها. وفي مياهها ثمة أسماك وزواحف من جميع الأنواع، وعلى سطح المياه، أو فوقها، تعوم وتحلق أسراب عظيمة من البط والحمام، فيما تحيط بجميع الضفاف آثار الدببة الذاهبة في كل اتجاه. إنها بحيرة الدواء، بالنسبة للطيور والحيوانات، فإذا أصيب دب على يد الصيادين فإنه يسلك طريقه عبر الغابات نحو هذه البحيرة ويغطس في المياه، وعندما يخرج منها في الناحية المقابلة تكون جراحه قد برئت. لهذا السبب تُبقي الحيوانات البحيرة مخفية عن أعين الصيادين.

Twitter: @ketab_n

العروس الجنوبية

مضى الشمال مسافراً، وبعد ارتحاله بعيداً والتقائه قبائل مختلفة عديدة وقع أخيراً في غرام ابنة الجنوب وأراد الزواج منها. كانت الفتاة ترغب في ذلك، لكن أهلها رفضوا وقالوا للشمال: «منذ أن أتيت صار الطقس بارداً، وإن أقمت هنا فسنموت كلنا من الصقيع».

ناشدهم الشمال بأسى، وقال إنه، إن وافقوا على منحه ابنتهم، سوف يأخذها معه إلى بلاده، وهكذا قبلوا في النهاية. عقدا قرانهما واصطحب عروسه إلى بلاده، وحين بلغا تلك البلاد وجدت أن جميع الناس يعيشون في بيوت من جليد.

في اليوم التالي، حين طلعت الشمس، بدأت البيوت ترشح، وحين سرت الشمس صعوداً أخذت تلك البيوت تذوب، وازداد الدفء أكثر فأكثر، حتى أقبل الناس إلى الزوج الشاب وقالوا له إن عليه إعادة زوجته إلى بلادها، وإلا فإن الطقس سيغدو أكثر دفئاً وسوف تذوب القرية بأسرها. وقد جعله حبه

Twitter: @ketab_n

لزوجته يعرض عنهم بقدر ما يستطيع، لكن ومع استمرار ارتفاع حرارة الشمس، غدا الناس أكثر إلحاحاً، وكان عليه في النهاية أن يعيدها إلى أهلها في بلادها.

قال الناس إنها ولكونها ولدت في الجنوب وتغذت طوال حياتها من طعام ينبت في المناخ ذاته، فإن طبيعتها دافئة لا توافق الشمال.

Twitter: @ketab_n

رَجُلُ الجليد

ذات يوم عندما كان الناس يحرقون الغابات في الخريف أضرم اللهيبُ النارَ في شجرة حَوْر، فبقيت تشتعل حتى نزلت النار إلى الجذور وأوقدت حفرة كبيرة في الأرض. أخذت النار تشتعل وتشتعل، وراحت الحفرة تكبر على نحو مستمر، إلى أن أحس الناس بالذعر وخافوا من أن تُحرق العالم كله. حاولوا إخماد النار، لكنها كانت قد أوغلت عمقاً، فما عادوا يعرفون ما ينبغي فعله.

أخيراً قال واحد منهم إن هناك رجلاً يعيش في منزل من جليد في أقصى الشمال بوسعه إخماد النار، فبُعث الرسل إليه، وبعد سفر مسافة طويلة بلغوا منزل الجليد ووجدوا رجل الجليد في البيت. كان رجل ضئيلاً شعره طويل يتدلى على الأرض بجديلتين. أبلغه المبعوثون رسالتهم وأجابهم في الحال: «آه، أجل، بوسعي مساعدتكم»، وشرع في حل جديلتيه. عندما حُل شعره كله رفعه بيده دفعة واحدة وضربه لمرة واحدة فوق يده الأخرى، وقد شعر الرسل بهبة ريح تلفح وجناتهم. عاد وضرب شعره على

Twitter: @ketab_n

يده ثانية، فبدأ مطر خفيف بالهطول. عندما ضرب شعره للمرة الثالثة على يده المفتوحة، امتزج جَمَدُ المطر[1] مع حبيباته، وحين ضرب الشعر للمرة الرابعة هطل على الأرض بَرَدٌ عظيمٌ كأنه خارج من أطراف شعره. قال لهم رجل الجليد: «ارجعوا الآن، وسوف أكون هناك غداً». فعاد الرسل إلى قومهم، ووجدوهم ما زالوا مجتمعين بلا حول قرب الحفرة الكبيرة المشتعلة.

في اليوم التالي وبينما كانوا جميعاً قرب النار يراقبون جاءت ريح من الشمال، فانتابهم الخوف، إذ علموا أنها تأتي من رجل الجليد. لكن الريح لم تفعل سوى أن أججت سعير النار. حينها بدأ مطرٌ خفيف بالهطول، غير أن حبيبات المطر بدت تؤجج النار. ثم استحال المطر الخفيف غزيراً، مصحوباً بجَمَدِ المطر والبَرَد اللذين أزهقا اللهب وكونا سحاباً من دخان وبخار ارتفع من الجمر الأحمر. هرع الناس للاختباء في بيوتهم، وصارت العاصفة زوبعة قادت المطر إلى كل صَدْع يشتعل وكومت بَرَداً عظيماً فوق الجمر، إلى أن خمدت النار وتوقف الدخان كذلك. أخيراً حين انتهى كل شيء رجع الناس فوجدوا بحيرة في الموضع حيث كانت الحفرة المشتعلة، ومن أعماق المياه طلع صوتٌ كصوتِ جمر ما زال يطقطق.

(1) جَمَدُ المطر، أو القِطْقِط، هو مطر متجمد أو نصف متجمد (م).

Twitter: @ketab_n

سيلو والصياد

كمن صياد في الجبال طوال يوم كامل من دون أن يعثر على أي طريدة، وحين غابت الشمس أضرم النار في جذع أجوف، وتناول مقداراً قليلاً من ثريد الذرة واستلقى للنوم، مُنهكاً يلفه الإحباط. وزهاء منتصف الليل تراءى له في نومه أنه يسمع صوت غناء عذب، استمر حتى مطلع الفجر ثم بدا يتلاشى في الهواء العُلوي.

ظلّ الحظ العاثر ظل يتلبسه طوال اليوم التالي، وفي الليل، مرة أخرى أقام معسكره المتوحد في الغابة. نام وعاوده الحلم الغريب من جديد، لكن على نحو شديد الوضوح حتى بدا له أن ذلك يحصل بالفعل. وحين نهض قبل طلوع الشمس، كان ما زال يسمع الأغنية، وقد تأكد حينذاك أن ما يسمعه حقيقي، وذهب في اتجاه الصوت فوجد أنه يصدر من إحدى شتلات الذرة الخضراء (سيلو). خاطبته النبتة وقالت له أن يقطع بعضاً من جذورها ويحمله معه إلى بيته في القرية، ويقوم في الصباح

Twitter: @ketab_n

التالي بمضغه وأن «يذهب إلى المياه» قبل أن يستيقظ أحد غيره، ثم يذهب مجدداً إلى الغابة حيث سيقتل غزلاناً كثيرة وسيغدو منذ ذلك الحين موفقاً في الصيد على الدوام. مضت نبتة الذرة في كلامها، ملقنة إياه أسرار الصيد موصية إياه أن يكون كريماً تجاه الطرائد التي يحصل عليها، إلى أن حلت الظهيرة وارتفعت الشمس فاتخذت فجأة هيئة امرأة وصعدت في الهواء بجلال وغابت عن الأنظار، تاركة الصياد وحده في الغابة.

عاد إلى البيت وروى قصته، وقد عرف الناس جميعاً أنه التقى سيلو، زوجة كاناتي. نفذ الصياد كل التوجيهات التي زودته الروح بها، وقد اعتبر منذ ذلك الحين الصياد الأكثر نجاحاً بين جميع صيادي القرية.

Twitter: @ketab_n

نمور[1] باطن الأرض

كان صياد في الغابة ذات يوم شتويّ حين رأى فجأة نمراً مقبلاً نحوه فاستعد في الحال للدفاع عن نفسه. ظلّ النمر يقترب، وكان الصياد على وشك التسديد حين خاطبه الحيوان، وقد بدا للرجل على الفور كأن لا فارق بينهما، وأن كلاهما من طبيعة واحدة. سأله النمر عن وجهته، وأجاب الرجل أنه يبحث عن غزال. قال النمر: «حسناً، إننا نستعد لرقصة الذرة الخضراء، وهناك سبعة منا مضوا بحثاً عن ظبي، فيمكننا إذن أن نصطاد معاً».

وافق الصياد ومضيا معاً. مرا بالغزال الأول والثاني، لكن النمر لم يبد أي اهتمام قائلاً وحسب إن «هذين صغيران جداً، نريد شيئاً أفضل». فلم يسدد الصياد، وأكملا طريقهما. مرا بغزال آخر، غزال كبير، وانقض النمر عليه ومزق نحره، وقتله، في النهاية، بعد صراع مرير. امتشق الصياد سكينه كي يسلخ جلده، لكن النمر قال إن الجلد قد تمزق بالكامل

(1) تحديداً هو الـ «بانثر»، النمر الأميركي الذي يعرف أيضاً بالـ «جاغوار» (م).

Twitter: @ketab_n

فلم يعد صالحاً للاستعمال، وإن عليهما المحاولة من جديد. مرا بغزال كبير آخر، وهذا قتله النمر من دون صعوبة، ومن ثم قام بلف الغزال بذيله، وحمله على ظهره. قال الصياد: «الآن، تعال إلى دار بلدتنا».

تقدّم النمر المسير، حاملاً الغزال على ظهره، وقد تبعا رافد جدول صغير حتى بلغا رأس النبع، حين بدا لهما وكأن باباً يفتح عند طرف التل ودخلا فيه. حينذاك ألفى الصياد نفسه أمام دار بلدة كبيرة، وأمامها أحسن ديتسانون لي[1] كان قد رآها في حياته، وكانت الأشجار التي تحيط بالدار خضراء والهواء دافئاً، كمثل هواء الصيف. وكان جمع كبير من النمور يستعد للرقص، لكن الأمور كلها بدت طبيعية إلى حد ما، بالنسبة للصياد. بعد وقت قصير عاد الآخرون ممن ذهبوا للصيد، عادوا بالغزال الذي اصطادوه، وبدأ الرقص. رقص الصياد دورات عدة، ثم قال إن الوقت تأخر وينبغي عليه المضي إلى البيت. ففتحت النمور له الباب وخرج، وما لبث أن ألفى نفسه وحيداً في الغابة مرة أخرى، وقد كان الطقس شتوياً قارصاً، والثلج على الأرض وعلى الأشجار

(1) الـ ديتسانون لي الواردة في هذه القصة تعني قطعة أرض يجري تمهيدها وإعدادها لغايات احتفالية (م).

Twitter: @ketab_n

كلها. حين بلغ القرية وجد جمعاً يستعد للانطلاق كي يبحث عنه. سألوه أين كان طوال هذا الوقت، فروى لهم قصته، واكتشف حينذاك أنه أمضى أياماً عدة في دار بلدة النمور، لا مجرد وقت قصير، كما كان يعتقد.

توفي بعد سبعة أيام تلت رجوعه، لأنه كان قد شرع في اتخاذ طبيعة النمر، فلم يعد بوسعه العيش بين البشر. ولو أنه استقر بين النمور لكان بقي على قيد الحياة.

Twitter: @ketab_n

تسونديغي وي

ذات يوم انطلق بضعة شبان من الشيروكي لاستكشاف العالم وسافروا جنوباً حتى بلغوا قبيلة من القوم الصغار تُدعى تسونديغي وي، لأجساد أفرادها هيئات غريبة جداً فلا يكاد يبلغ طول واحدهم ركبة الرَجُل، كما لم يكن للقبيلة منازل، بل يعيش أفرادها في أعشاش بنيت في الرمل وغطيت بالحشائش اليابسة. كان الأصدقاء الصغار ضعافاً جداً وضئيلين فلم يكن بوسعهم القتال على الإطلاق وكانوا يحيون رعباً دائماً من الإوز البري والطيور الأخرى التي كانت تأتي بأسراب عظيمة من الجنوب كي تحاربهم.

في اللحظة ذاتها التي وصل فيها المسافرون إلى تلك القبيلة وجدوا القوم الصغار وقد استبد بهم الذعر، لأن ريحاً عظيمة كانت تهب من الجنوب وقد حملت معها ريشاً أبيض نثرته على الرمال، فأدرك الـ تسونديغي وي أن أعداءهم قادمون وما عادوا بمنأى عنهم. سألهم فتية الشيروكي عن سبب عدم دفاعهم عن

Twitter: @ketab_n

أنفسهم، فأجابوا بأنهم عاجزون عن ذلك، لأنهم لا يعرفون وسيلة للدفاع. لم يكن ثمة وقت لصنع أقواس وسهام، إلا أن المسافرين دعوهم كي يمتشقوا عصياً كهراوات، وعلموهم كيف يضربون الطيور على أعناقها كي يصرعوها.

هبت الريح لأيام عديدة، وقد جاءت الطيور أخيراً بأعداد غفيرة، فبدت كغيمة في الجو، وحطت على الرمال. هرع القوم الصغار إلى أعشاشهم، فتبعتهم الطيور وغرست مناقيرها الطويلة لتسحبهم وتلتهمهم. إلا أن الـ تسونديغي وي هذه المرة كانوا قد أعدوا هراواتهم، وقاموا بضرب الطيور على الأعناق، كما علمهم الشيروكي، وقتلوا منها مقتلة كبيرة. فما كان ممن تبقى من الطيور في النهاية، إلا أن يفرد أجنحته ويطير عائداً إلى الجنوب.

شكر القومُ الصغارُ الشيروكي على مساعدتهم وقدموا لهم أحسن ما عندهم، ومضى الشيروكي في طريقهم لرؤية القبائل الأخرى. وقد تناهى لسمعهم فيما بعد أن الطيور عادت من جديد لمرات عديدة، غير أن القوم الصغار قاموا بصدها بواسطة هراواتهم، وذلك إلى أن جاءت طيور كركي الكثبان الرملية. كانت هذه الطيور طويلة جداً فلم يستطع القوم الصغار بلوغ أعناقها لضربها، فأقدمت طيور الكركي في النهاية على قتلهم جميعاً.

Twitter: @ketab_n

أصل الدب: أغنيات الدب

في قديم الزمان كانت هناك عشيرة من الشيروكي تُدعى آني – تسا غوهي، وفي إحدى عائلات العشيرة تلك كان ثمة صبي اعتاد مغادرة البيت وقضاء النهار في الجبال.

في خلال فترة وجيزة أكثر الصبي من رواحه وأخذ يقضي في الجبال وقتاً أطول، حتى بات في النهاية يمتنع تماماً عن تناول الطعام في المنزل، بل يغادر فجراً ولا يعود سوى في الليل. وبخه والداه، لكن ذلك لم ينفع، واستمر الصبي في الذهاب يومياً، إلى أن لاحظ أهله ذاك الشَعْر البني الطويل الذي أخذ ينبت في مختلف أنحاء جسده. حينذاك حار الأهل في أمرهم وسألوه عن سبب رغبته في قضاء وقت طويل في الغابات وعن عدم تناوله الطعام في المنزل. قال الصبي: «إني أجد الكثير لآكله هناك، وهو أفضل من الذرة والفول المتوافرين في القرية، كما أني سوف أنتقل عما قريب للعيش هناك على نحو دائم». أحس والداه بالقلق وناشداه ألا يرحل، لكنه قال لهما: «الحال هناك أفضل من هنا،

Twitter: @ketab_n

وها قد بدأت في التحول كما تَرَيان، فلن يكون بوسعي العيش هنا بعد الآن. لو تأتيان معي فسوف يكون لنا ما يكفينا جميعاً، ومن دون القيام بأي عمل، لكن إن قررتما المجيء فعليكما الصوم لأيام سبعة».

تباحث الوالدان في الأمر ثم عرضا الموضوع على زعماء العشيرة. عُقد مجلس حول الأمر وبعد أن انتهت النقاشات قرروا: «هنا، حيث نحن، مفروض علينا أن نجهد في العمل ولا نحصل دائماً على ما يكفي. هناك، على ما يقول الصبي، ثمة وفرة دائمة ومن دون عمل. سوف نذهب معه». هكذا، صاموا سبعة أيام، وفي الصباح السابع قامت قبيلة آني – تسا غوهي كلها وغادرت القرية متوجهة نحو الجبال خلف الصبي الذي تقدّم المسير.

عندما سمع الناس في القرى الأخرى بما حصل شعروا بالأسف وأرسلوا زعماءهم لإقناع قبيلة آني – تسا غوهي بالبقاء بديارها وألا تذهب للعيش في الغابات. لاقاهم المرسلون وكانوا قد صاروا في طريق رحلتهم، وقد تفاجأ الأُوَل حين لاحظوا أن أجساد أفراد القبيلة قد بدأت تكتسي بشَعْرٍ كشعر الحيوانات، وذلك لأنهم كانوا قد انقطعوا عن تناول طعام البشر طوال أيام سبعة فأخذت طبيعتهم تتبدل. ورفض آني– تسا غوهي العودة قائلين: «نحن

Twitter: @ketab_n

ذاهبون إلى حيث الطعام وافر على الدوام. فيما بعد سوف نُدعى يانو (دببة)، وحين تشعرون أنتم بالجوع تعالوا إلى الغابات ونادونا وسوف نأتي لنطعمكم لحم أجسادنا. عليكم ألا تخافوا من قتلنا، لأننا سوف نحيا دائماً». ثم قاموا بتلقين الرسل الأغاني التي عليهم مناداتهم بها، وما زال صيادو الدببة يحفظون تلك الأغاني. حين فرغوا من تلقين الأغنيات تابع أفراد قبيلة آني– تسا غوهي طريقهم وعاد الرسل أدراجهم إلى القرى، غير أن هؤلاء، وبعد مسير قصير، التفتوا خلفهم وشاهدوا قطيعاً من الدببة يخوض في الغابات.

أغنية الدب الأولى

هي – ي! آني – تسا غوهي، آني –تسا غوهي، أكواندو لي إي لانتي غينون تي

آني – تسا غوهي، آني –تسا غوهي، أكواندو لي إي لانتي غينون تي – يوو!

هي – ي! الـ آني – تسا غوهي، الـ آني – تسا غوهي، أريد أن ألقيهم أرضاً،

الـ آني – تسا غوهي، الـ آني – تسا غوهي، أريد أن ألقيهم أرضاً، يوو!

Twitter: @ketab_n

ينطلق صياد الدببة كل صباح ويكون صائماً، فلا يتناول الطعام إلى أن يدنو الليل. يقوم الصياد بشدو هذه الأغنية خلال مغادرته المعسكر، ثم يشدو بها مرة أخرى في الصباح التالي، لكن عليه ألا يكررها أكثر من مرة في اليوم الواحد.

أغنية الدب الثانية

هذه الأغنية يشدو بها صياد الدببة أيضاً، وذلك كي يجتذب الدببة، حين يكون في طريقه من المعسكر إلى المكان الذي يتوقع الصيد فيه خلال النهار. لحن هذه الأغنية سهلٌ وحزين.

هي - ي! هايويا هانيوا، هايويا هانيوا ، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا،

تسيستويي نيهاندو يانو، تسيستويي نيهاندو يانو - يوهو - أوو!

هي - ي! هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا،

كواهي نيهاندو يانو، كواهي نيهاندو يانو، يوهو - أوو!

هي - ي! هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا،

Twitter: @ketab_n

أوورياهيي نيهاندو يانو، أوويا هيي نيهاندو يانو، يوهو- أوو!

هي -ي! هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا، هايويا هانيوا،

غاتي غوا نيهاندو يانو، غاتي غوا نيهاندو يانو، يوهو- أوو!

أوولي- نو أسيهي تاديا ستاتاكوهي غون ناغي أستو تسيكي

هي! هايويا هانيوا (أربع مرات)،

في تسيستو يي قد تراءيت (مرتان)—يوهو!

هي! هايويا هانيوا (أربع مرات)

في كووا هي قد تراءيت (مرتان)—يوهو!

هي! هايويا هانيوا (أربع مرات)

في أوويا هيي قد تراءيت (مرتان)—يوهو!

هي! هايويا هانيوا (أربع مرات)،

Twitter: @ketab_n

في غاتي غوا قد تراءيت (مرتان)—يوهو!

والآن بالتأكيد، نحن وهؤلاء السود الحسان، الأحسن على الإطلاق، سوف نقابل بعضنا بعضاً.

Twitter: @ketab_n

الرجل الدب

ذهب رجلٌ للصيد في الجبال ومر بدب أسود، كان قد أصابه بسهم. استدار الدب وشرع يركض في الطريق المعاكس، فتبعه الصياد، مُطلقاً السهم تلو الآخر عليه من غير أن يرديه. بهذا، فقد كان الدب سحرياً، وكان بوسعه التحدث مع الناس وقراءة أفكارهم من دون أن يتفوهوا بكلمة. أخيراً توقف الدب وقام بانتزاع السهام من طرفه وأعطاها للرجل، قائلاً له: «إنه لمن غير المفيد لك التسديد علي، إذ أنك لن تقوى على قتلي. تعالى معي إلى منزلي ولنحيا معاً». فكر الصياد: «ربما يقتلني»، لكن الدب قرأ أفكاره وقال له: «لا، لن أؤذيك». فكر الرجل ثانية،: «كيف لي أن أحصل على طعام؟»، لكن الدب قرأ أفكاره وقال له: «سوف يكون هناك الكثير». فمضى الصياد مع الدب.

مضيا معاً حتى بلغا جُحْراً في طرف الجبل، وقال الدب: «إني لا أحيا هنا، لكن ثمة مجلس سيعقد في هذا المكان وسوف نرى ماذا سيفعلون». دخلا، وقد أخذ الجُحر يتسع كلما تقدما فيه،

Twitter: @ketab_n

حتى بلغا كهفاً كبيراً كأنه دار بلدة. كان الكهف مليئاً بالدببة – دببة مسنة وفتية وجراء ودببة بيضاء وأخرى سوداء وبُنية اللون، أما الزعيم فقد كان دباً أبيض. جلسا في زاوية، لكن الدببة سرعان ما شمت رائحة الصياد وشرعت تسأل: «من أين تصدر هذه الرائحة الكريهة؟». قال الزعيم: «لا تقولوا هذا، إنه مجرد غريب جاء ليزورنا. دعوه وشأنه».

كان الطعام ينفد في الجبال وقد عُقد المجلس لاتخاذ قرار بما يمكن فعله إزاء الأمر. قاموا ببعث رسل في كل الأنحاء، وفيما كان النقاش جارياً دخل إلى المجلس دُبان وأفادا بأنهما عثرا على بلاد في الأراضي المنخفضة يتوافر فيها الكثير من الكستناء والبلوط. حينها أحس الجميع بالارتياح، واستعدوا للرقص، وكان سيد الرقصة هو ذاك الذي يدعوه الهنود كالاس –غونانهي تا، «المَأبِضان[1] الطويلان»، الدب الأسود الكبير الذي يتمايل باستمرار. بعد انتهاء الرقص انتبهت الدببة لقوس الصياد وسهامه، وقال أحدها: «هذا ما يستخدمه البشر لقتلنا. فلنرَ إن كان بوسعنا التعامل مع هذه الأشياء، إذ ربما نتمكن من قتال الإنسان بسلاحه هو». فأخذت الدببة القوس والسهام من الصياد لتجربها. وضع أحدها السهم في القوس وشد الوتر إلى الخلف، لكن إذ رفع يده علقت مخالبه الطويلة بالوتر وسقط

(1) المَأبِض هو باطن الركبة (م).

Twitter: @ketab_n

السهم على الأرض. رأت الدببة أنها لن تتمكن من استخدام القوس والسهام وأعادتها للرجل. حين رُفِع المجلس وانتهى الرقص، بدأت الدببة بالتوجه إلى بيوتها، ما عدا الدب الأبيض الزعيم الذي كان يحيا هناك، وقد غادر الصياد والدب معاً في آخر الأمر.

مضيا معاً إلى أن بلغا جحراً آخر في طرف الجبل، حينها قال الدب: «أعيش هنا»، ودخلا. حينذاك كان الصياد قد أمسى جائعاً وأخذ يفكر بما يمكن أن يفعله ليحصل على شيء يأكله. قرأ مُرافقه أفكاره، وهو جالس على رجليه الخلفيتين قام الدب بحك معدته بمخالبه البارزة - سو - وفي الحال امتلأت كفاه بالكستناء وقدمها للرجل. حك معدته ثانية - سو - وامتلأت كفاه بالتوت وقدمه للرجل. حك مرة أخرى - سو - وقدم للرجل ملء كفيه من ثمر العليق. حك أيضاً وأيضاً - سو - وامتلأت كفاه بالبلوط، إلا أن الرجل قال إنه لا يستطيع أكله، وإن ما سبق وقدمه له الدب صار كافياً.

عاش الصياد مع الدب في الكهف طوال الشتاء، إلى أن بدأ يكسو جسده شعرٌ طويلٌ كذاك الذي يكسو الدب، كما بدأ يتصرف كالدب، لكنه ظل يسير كرجل. في مطلع الربيع ذات يوم قال له الدب: «جماعتك هناك في القرية يُجرون استعداداتهم

Twitter: @ketab_n

لصيد كبير يسعون له في هذه الجبال، وسوف يأتون إلى هذا الكهف ويقتلونني وينزعون عني هذي الثياب» - عنى بذلك جلده - «لكنهم لن يؤذوك وسوف يأخذونك معهم إلى الديار». عرف الدب ما كان يفعله الناس هناك في القرية، تماماً مثلما كان يعرف على الدوام ماذا يدور في خلد الرجل. مضت أيام عديدة وعاد الدب وقال: «هذا هو اليوم الذي سيأتي فيه أصحاب القُنْزُعَة[1] كي يقتلوني، لكن ذوي الأنوف المشقوقة سوف يأتون قبلهم ويجدوننا. وبعد أن يجهزوا عليّ سوف يسحبونني إلى خارج الكهف ويُجردونني من ثيابي ويقطعونني قِطَعاً. عليك بتغطية الدماء بأوراق الشجر، وحين يأخذونك معهم انظر خلفك قليلاً بعد أن تكون قد ابتعدت، وسوف ترى شيئاً».

بعد قليل تناهت لسمعهما جلبة صعود الصيادين إلى الجبل، ومن ثم عثرت الكلاب على الكهف وبدأت تنبح. جاء الصيادون ونظروا إلى داخل الكهف ووجدوا الدب وقتلوه بسهامهم. ثم قاموا بسحبه إلى خارج الكهف وسلخوا جلده وقطعوه أربعة أجزاء يحملونها معهم إلى ديارهم. استمرت الكلاب بالنباح حتى ظن الصيادون أن هناك دباً آخر في الكهف. عاودوا البحث في الداخل فوجدوا الرجل في الركن الأبعد. في البداية اعتقدوا أنه

(1) ريش أو شعر يكسو قمة الرأس، وقد اشتهر هنود أميركا الشمالية بارتدائه (م).

Twitter: @ketab_n

دب آخر نظراً لشعره الطويل، لكنهم سرعان ما أدركوا أنه الصياد الذي فقدوه في السنة الفائتة، فدخلوا واصطحبوه إلى الخارج. ثم أخذ كل صياد حِمْلاً من لحم الدب وانطلقوا عائدين إلى ديارهم، ومعهم الرجل وجلد الدب. قبل مغادرتهم كوم الرجل أوراق الشجر فوق البقعة التي سلخوا عليها الدب، وبعد أن قطعوا مسافة قصيرة وهم راحلون نظر إلى الخلف ورأى الدب ينهض من بين أوراق الشجر، ينفض نفسه، ويمضي عائداً إلى الغابات.

حين اقتربوا من القرية قال الرجل للصيادين إن عليه الانزواء في مكان لا يمكن لأحد أن يراه فيه، فلا يأكل أو يشرب طوال سبعة أيام وليال، إلى أن تغادره طبيعة الدب فيعود إنساناً من جديد. فحبسوه في بيت بمفرده وحاولوا عدم إشاعة الأمر، لكن الأخبار انتشرت ووصلت إلى زوجته. جاءت المرأة إلى زوجها، غير أن الناس منعوها من الاقتراب منه، فصارت تأتي في كل يوم وتتوسل كثيراً حتى سمحوا لها في النهاية بأخذه بعد خمسة أيام أو أربعة. اصطحبته معها إلى البيت، غير أنه ما لبث أن مات، إذ أن طبيعة الدب كانت لا تزال فيه ولم يستطع معاودة العيش كإنسان. لو أنهم تركوه محبوساً وصائماً حتى نهاية اليوم السابع لكان عاد رجلاً من جديد، ولكان قد عاش.

Twitter: @ketab_n

عَلَقَة[1] تلانوسي يي العظيمة

في أوساط الشيروكي يعرف الموضع حيث ينضم نهر فالي[2] إلى نهر هيواسي[3]، في مورفي، بولاية نورث كارولينا، باسم تلانوسي يي، «مكانُ العَلَقَة»، وهذه القصة التي يروونها عنه:

قبيل نقطة الاتصال بمسافة قليلة ثمة موضع عميق في نهر فالي، وفوقه هناك سلسلة صخرية تحت الماء تمتد على مجرى النهر، حيث كان الناس يطأون قممها كأنهم يطأون جسراً. عند الجهة الجنوبية ارتقت الطريقُ ضفة عالية يُشرف العابرون عليها على الماء في الأسفل.

وذات يوم كان بعض الرجال يعبرون الطريق وقد رأوا جسماً أحمر كبيراً، يوازي حجم بيت، جاثماً على السلسلة الصخرية وسط مجرى المياه تحتهم. وحين وقفوا يستطلعون عما قد يكونه

(1) دويبة سوداء ممتص الدم (م).
(2) هو نهر «فالي»، أي «وادي» باللغة الإنجليزية، وقد ارتأينا عدم ترجمة الاسم (م).
(3) ينبع نهر هيواسي من المنحدرات الشمالية لجبال روكي بمقاطعة تاونز شمال ولاية جورجيا ويمضي شمالاً في ولاية نورث كارولينا قبل أن ينحدر غرباً في تنيسي فينضم حينذاك إلى نهر تنيسي (م).

Twitter: @ketab_n

ذلك الجسم، شاهدوه يبسط نفسه – ثم أدركوا أنه حي – ويتمدد على الصخرة، حتى بدا مثل عَلَقَة عظيمة تزين جسدها خطوط حمراء وبيضاء. كور الجسم نفسه كمثل كرة، ثم عاد وتمدد بقدر ما يستطيع، وأخيراً أخذ يدب منحدراً عن الصخرة، إلى أن غاب عن الأنظار في المياه العميقة. بدأت المياه تغلي وتزبد، وامتد عمود عظيم من رذاذ أبيض عالياً في الجو، وهبط كدفق إعصار فوق الموضع حيث كان يقف الرجال، وكان ليجرفهم جميعاً في المياه لو أنهم لم يلاحظوه في الوقت المناسب ويركضوا مغادرين المكان.

أكثر من شخص تاه في هذا المكان، وكان أصدقاء التائهين هـؤلاء يعثرون على أجساد الأخيرين بعد ذلك، ممددة على ضفة النهر وقد التُهمت آذانها وأنوفها، إلى أن بات الناس في النهاية يخشون العبور فوق السلسلة الصخرية، نظراً لوجود العَلَقة العظيمة، بل حتى إنهم باتوا يخشون سلوك ذاك الجزء من الطريق. إلا أن شاباً فتياً كان يهزأ من القصة كلها، وقال للآخرين إنه لا يخاف شيئاً في نهر فالي، كما سوف يريهم. فقام في أحد الأيام بطلاء وجهه وقد ارتدى أجمل ما لديه من جلد الظبي وانطلق نحو النهر، فيما مضى جميع الناس خلفه وظلوا على

Twitter: @ketab_n

مسافة منه لكي يشاهدوا ما يمكن أن يحصل. هبط عن الطريق ومشى على سلسلة الصخور، منشداً بمعنويات عالية:

تلانو سي غايي غا ديغي غاغي

داكوا نيتلاستي ستي

سوف أعقد جلد العَلَقَة الأحمر

حول رجلَي كرباط للجورب

لكن قبل بلوغه وسط المياه، راحت الأخيرة تغلي وتصدر زبداً أبيض وقد ارتفعت موجة عظيمة وضربت الصخرة وجرفته إلى الأسفل، ولم يره أحد مرة أخرى.

قبيل «النقل»[1] بفترة قصيرة، قبل ستين سنة من الآن، قصدت امرأتان السلسلة الصخرية كي تصطادان السمك. حذرهن أصدقاؤهن من الخطر، لكن إحداهن، وقد كانت تحمل ابنها على ظهرها، قالت: «ثمة أسماك هناك وأريد أن اصطاد بعضها، فلقد سئمت من هذا اللحم الدسم». مددت الصبي

(1) «قانون نقل الهنود»، وهو جزء من سياسة الحكومة الأميركية تجاه الهنود الحمر، وقد وقعه الرئيس أندرو جاكسون وأقره الكونغرس ليصبح قانوناً نافذاً في 26 مايو 1830. وقد اقتضى ذلك نقل القبائل الهندية بالقوة من قراها في ولايات الجنوب والجنوب الشرقي، إلى محميات غرب نهر الميسيسيبي (م).

Twitter: @ketab_n

على الصخرة وكانت قد أخذت تُعد الخيط حين ارتفعت المياه على نحو مفاجئ وضربت السلسلة الصخرية وكادت أن تجرف الطفل لو لم تسارع الأم في الوقت المناسب وتنقذه.

ما زالت العَلَقة العظيمة هناك، في أعماق المياه، لأن الناس حين ينظرون إلى الأسفل يرون شيئاً حياً يتحرك في القاع، وعلى الرغم من عدم تمكنهم من تمييز هيئتها بسبب تموج المياه، فإنهم يدركون بأنها العَلَقة. ويقول بعضهم إن هناك ممراً مائياً سفلياً يصل إلى نهر نوتيلي، القريب من المنبع، حيث ينعطف النهر نحو مورفي، وإن العَلَقة تمضي إلى هناك في بعض الأحيان فتجعل المياه تغلي كما كانت تفعل عند السلسلة الصخرية. فيسمون ذلك الموضع في نوتيلي «مكان العَلَقة» أيضاً.

Twitter: @ketab_n

الـ نوني هي وغيرهم من جماعات الروح

الـ نوني هي، أو الخالدون، «الشعب الذي يحيا في كل مكان»، هم سلالة من أقوام الروح عاشوا في أعالي بلاد الشيروكي القديمة وكان لهم الكثير الوافر من دور البلدات، خصوصاً في الجبال الجـرداء، في القمم الشامخة حيث لا تنبت الأشجار قطّ. في بايلوت نوب[1] كما في أسفل هضبة نيكواسي القديمة في نورث كارولينا، كان لديهم دور بلدات فسيحة، ودور أخرى في أسفل جبل الدماء، عند منبع نهر نوتلي، في جورجيا.

كانوا غير مرئيين، إلا عندما يرغبون في الظهور، وحينذاك يبدون مثل الهنود الآخرين ويتسكعون مثلهم. كانوا مولعين جداً بالموسيقى والرقص، وغالباً ما سمع الصيادون في الجبال أغنياتهم وجلبة رقصاتهم وقرع طبولهم في بعض دور البلدات التي لا تُرى، لكن، وحين كان الصيادون هـؤلاء يتوجهون نحو مصدر الصوت، فقد كان اتجاه الصوت يتبدل فيسمعونه

(1) بايلوت نوب هو تل مقدس بالنسبة للهنود الحمر، يقع في مرتفعات مينوتا، في ولاية مينيسوتا الأميركية (م).

Twitter: @ketab_n

خلفهم، أو منبعثاً من أي جهة أخرى، فيعجزون تماماً عن بلوغ مكان الرقص.

كانوا شعباً ودوداً، وكثيراً ما آووا الجوالين التائهين واستضافوهم باستمرار في دور بلداتهم في سفوح الجبال، واعتنوا بهم هناك وأراحوهم، ثم أرشدوهم للعودة إلى ديارهم. وكذلك، حين واجه الشيروكي ضغوطاً شديدة من قبل العدو، فقد ظهر محاربو الـ نوني هي أكثر من مرة، كما فعلوا في نيكواسي القديمة، فأنقذوهم من الهزيمة. ظن بعض الناس أنهم لا يختلفون عن الـ يونوي تسونسدي، القوم الصغار، إلا أن الأخيرين هم من الجن، لا يزيد حجمهم عن حجم الأطفال.

ثمة رجل في بلدة نوتيلي قضى في يفاعته وقتاً مع الـ نوني هي وروى كل ذلك لوافورد[1]. وكان صادقاً عنيداً، وكان وافورد قد سمع تلك القصة مراراً من أناس آخرين، فطلب منه أن يرويها له. وجاءت القصة على هذا النحو:

ذات، حين كان في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، كان يلهو قرب النهر ويسدد على هدف بقوسه وسهامه، حتى استبدّ به

(1) جايمس وافورد هو رجل من الشيروكي في أوكلاهوما، وقد دون منه جايمس موني، خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، بعض قصص الشيروكي التي تناقلتها عائلته (م).

Twitter: @ketab_n

التعب فشرع ينصب شركاً للأسماك. وبينما هو يرصف الحجارة مقيماً جدارين ممتدين جاء رجل ووقف على الضفة وسأل الصبي عما يفعله. أخبره الأخير، فقال الرجل: «حسناً، إنه لعمل شاق فعلاً وعليك أن تأخذ قسطاً من الراحة. تعال وامش قليلاً بجانب النهر». قال الصبي: «لا»، لأنه كان سيذهب إلى البيت عما قليل لتناول العشاء. قال الغريب: «تعال إلى منزلي وسوف أحضر لك هناك عشاء شهياً وأُعيدك في الصباح إلى منزلك».

فقام الصبي ورافقه بمحاذاة النهر إلى أن بلغا بيتاً، وقد سُعدت زوجة الرجل والآخرون الموجودون في البيت برؤية الصبي وأعدوا له عشاء شهياً وكانوا شديدي اللطف معه. خلال تناولهم الطعام دخل رجل، كان الصبي يعرفه جيداً، وتحدث إليه فشعر كأنه في بيته.

بعد العشاء لعب الصبي مع الأولاد الآخرين ونام هناك في تلك الليلة، وفي الصباح، بعد الفطور، استعد الرجل كي يأخذه إلى بيته. انحدرا في طريق ممتد بين حقل للذرة من إحدى جهاتها، وكرم خوخ مسور من جهتها الأخرى، إلى أن بلغا طريقاً أخرى، فقال الرجل: «امض في هذه الطريق واعبر تلك السلسة الصخرية وسوف تبلغ طريق النهر التي سوف توصلك مباشرة

Twitter: @ketab_n

إلى بيتك، وإني الآن سأعود إلى منزلي». هكذا، عاد الرجل إلى منزله ومضى الصبي في الطريق، لكنه، وما إن قطع بعض مسافة فيها، حتى نظر وراءه فلم يرَ حقل ذرة ولا كرم خوخ ولا سوراً ولا بيتاً، لم يكن هناك شيء، سوى أشجار عند سفح الجبل.

رأى أن الأمر شديد الغرابة، لكنه، إلى حد ما، لم يشعر بالخوف، وأكمل حتى بلغ طريق النهر التي تطل على بيته. هناك كان ثمة جمع من البشر واقفين يتحدثون، وحين شاهدوه هرعوا نحوه صائحين، «ها هو ذا! إنه لم يغرق ولم يُقتَل في الجبال!» أخبروه أنهم كانوا يبحثون عنه منذ ظهيرة اليوم الفائت، وسألوه أين كان غائباً. فقال الصبيّ: «أخذني رجل معه إلى بيته عبر السلسلة الصخرية، وقد حظيت بعشاء شهي وقضيت وقتاً ممتعاً مع الأولاد، لقد اعتقدت أن أودسي سكالا – اسم الرجل الذي شاهده خلال العشاء – هنا، وهو سوف يخبركم أين كنت». لكن أودسي سكالا قال: «لا لم أرك قط. فقد قضيت النهار في قاربي أبحث عنك. إنه واحد من الـ نوني هي ذاك الذي جعل نفسه يشبهني».

ثم قالت والدته: «قلت إنك تناولت العشاء هناك؟».

«نعم، وكان سخياً أيضاً».

Twitter: @ketab_n

لكن والدته أجابت: «ليس من بيت هناك – هناك فقط أشجار وصخور – إلا أننا نسمع، في بعض الأحيان، قرع طبول في الجرد الفسيح فوقنا. الناس الذين رأيتهم هم الـ نوني هي».

ذات يوم جاءت أربع نساء من الـ نوني هي للرقص في بلدة نوتيلي، وقد رقصن مع الشبان هناك لنصف الأمسية، ولم يدرك أحد أنهن من الـ نوني هي، بل ظنوا أنهن زائرات من قرية أخرى. وقبيل منتصف الليل انطلقن للذهاب إلى دارهن، وقد خرج بعض الرجال من دار البلدة لتنشق الهواء فقاموا بمراقبتهن ليروا أي طريق سلكن. شاهدوا النساء ينحدرن في الطريق نحو الجزء الضحل من النهر، غير أنهن اختفين ما إن نزلن في الماء، وذلك على الرغم من وضوح معالم الطريق ومن عدم وجود مكان للاختباء. حينها أدرك المراقبون أنهن نساء من الـ نوني هي. وقد شاهد رجال عدة حصول ذلك، وأحدهم كان والد زوجة وافورد، الذي عرف بنزاهته. في وقت لاحق، كان رجل يُدعى «التبغ المشتعل» يعبر فوق السلسلة الصخرية من نوتيلي إلى هيمبتاون في جورجيا وقد سمع قرع طبل وأغنيات راقصين في التلال عند أحد طرفي الطريق. انطلق كي يرى

Twitter: @ketab_n

من ذاك الذي يرقص في مكان كهذا، لكنه حين بلغ الموضع كانت الأغنيات وقرع الطبل قد غدت خلفه، مما أخافه كثيراً وجعله يسرع عائداً إلى الطريق وانطلق راكضاً بأقصى سرعته طوال الطريق إلى هيمبتاون كي يُخبر ما رأى. كان الرجل موضع ثقة، وقد صدقوا ما قاله.

من المرجح أن عدداً كبيراً من الـ نوني هي كانوا يحيون هناك، في تلك الناحية، لأن قرع الطبول غالباً ما سمع هناك، واستمر حتى زمن «النقل» تقريباً.

في رافد صغير عال من نهر نوتيلي، يكاد يتجه شمالاً من جبل بلود[1]، كان ثمة حفرة في الأرض أيضاً، مثل بئر صغيرة أو مَدخَنة، وقد تصاعد منها بخار ساخن رفع حرارة الهواء. قال الناس إن ذلك مرده إلى دار بلدة للـ نوني هي، في أسفل الجبل، وإلى نار أوقدوها فيه. عندما يكون الطقس بـارداً، كان الصيادون يقفون هناك، في بعض الأحيان، ويتدفأون، لكنهم كانوا يخافون المكوث طويلاً. كان ذلك منذ أكثر من ستين سنة مضت، غير أن الحفرة ما زالت هناك، على الأرجح.

(1) أي جبل الدم، وارتأينا ألا نترجم الاسم (م).

Twitter: @ketab_n

على مقربة من طريق التجارة القديم، صعوداً بين ساوث كارولينا وأمة الشيروكي، وفي موضع قريب من منبع توغالو، كان يوجد منخفض دائري شهير، وقد كان بحجم دار بلدة وبعمق خصر. داخله ظل نظيفاً على الدوام كأن أيادي مجهولة كنسته. وكان التجار العابرون يرمون فيه جذوعاً وصخوراً، لكنهم في طريق عودتهم، على الدوام، كانوا يجدونها وقد قُذفت بعيداً خارج الحفرة. وقال الهنود إن المكان ذاك كان دار بلدة للـ نُونِيْ هِيْ، ولم يحبذوا قطّ الاقتراب منه أو حتى التحدث عنه، إلى أن تسنى أخيراً لبعض الجذوع التي رماها التجار البقاء في الحفرة، وقد استنتج الهنود من ذلك أن الـ نوني هي، الذين ضايقهم اضطهاد البيض، غادروا بلدتهم تلك إلى الأبد.

ثمة سلالة أخرى من الأرواح، هم الـ يُونْوِيْ تسُونْسْدِي، أو «القوم الصغار»، الذين يعيشون في طُنُوف[1] الصخور عند حافة الجبل. هم أفراد صغار، بالكاد يصل طول واحدهم إلى ركبة رجل، لكنهم وسيمون وهيئاتهم حسنة وشعورهم طويلة تكاد تلامس الأرض. هم صناع عجائب عظام وشديدو الولع بالموسيقى، يقضون نصف وقتهم في قرع الطبول والرقص. وهم نافعون طيبو القلب، وعندما يضل الناس في الجبال،

(1) ما نتأمنها (م).

Twitter: @ketab_n

خصوصاً الأولاد الذين شردوا عن أهلهم، غالباً ما يقوم الـ يُونْوِيْ تسُونْسْدِي بتلقفهم وبالاعتناء بهم ويعيدونهم إلى بيوتهم. ويُسمع قرع طبولهم أحياناً في أمكنة منعزلة في الجبال، إلا أنه من غير الآمن تتبع ذلك الصوت، لأن القوم الصغار لا يُحبون أن يعكر صفوهم أحد في ديارهم، وهم يرمون الغريب برقياتهم فيرتبك ويضل طريقه، وحتى إن تمكن من الوصول إلى القرية في النهاية، فإنه سيصبح، منذ ذلك الحين، شخصاً مشوشاً. في بعض الأحيان أيضاً، يقتربون ليلاً من أحد البيوت فيسمع أحاديثهم الناس الذين في الداخل، لكن على هؤلاء الناس ألا يخرجوا، وفي الصباح سيجدون أن الذرة قد تم جمعها أو أن الحقل قد نظف على نحو يوحي بعمل تضافرت فيه قوى بشرية كاملة. ولكن إن خرج أحد لمشاهدة ذلك، فإنه سوف يموت. عندما يعثر الصياد على شيء ما في الغابات، كسكين مثلاً أو حلية، عليه أن يقول: «أيها القوم الصغار، أود أن آخذ هذا»، إذ أن ذاك الشيء قد يكون لهم، وإن لم يستأذنهم فأنهم سوف يرمونه بالحجارة وهو في طريقه إلى دياره.

ذات يوم من أيام الشتاء رأى صياد آثار أقدام في الثلج بدت كآثار أقدام أولاد صغار. تساءل عما جاء بها إلى هناك

Twitter: @ketab_n

وتعقبها حتى أوصلته إلى كهف كان مليئاً بالقوم الصغار، شباناً ومسنين، رجالاً ونساء وأطفالاً. أدخلوه وأحسنوا معاملته، وقد مكث معهم لبعض الوقت، لكنهم، حين غادر، حذروه من أن يُخبر عن ذلك، وإلا يموت. عاد إلى قريته وكان جميع أصدقائه متلهفين لمعرفة أين كان. ظل، لوقت طويل، ممتنعاً عن إخبارهم، إلى أن بات عاجزاً في النهاية عن إخفاء الأمر، فأخبرهم القصة، وبعد أيام قليلة مات. منذ ما لا يزيد عن بضعة أعوام قليلة، عثر صيادان من رايفن تاون، كانا قد سارا خلف الشلال العالي بالقرب من منبع أوكونالوفتي[1] شرق محمية الشيروكي، على كهف انتشرت على أرضه آثار أقدام القوم الصغار، وقد بدت تلك الآثار حديثة العهد.

خلال تفشي مرض الجدري في أوساط الشيروكي الشرقيين بعيد الحرب مباشرة، ضل أحد الرجال المرضى سبيله وقد قام أصدقاؤه بالبحث عنه من دون أن يعثروا عليه. بعد أسابيع عدة عاد الرجل وقال إن القوم الصغار وجدوه وأخذوه إلى أحد طُنُفِهم الصخرية واعتنوا به إلى أن شفي.

(1) نهر يجري في أحد وديان جبال سموكي الكبرى في ولاية نورث كارولينا في جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية (م).

Twitter: @ketab_n

منذ نحو عشرين سنة خلت، تاه في الجبال، عند منبع نهر أوكونالوفتي، رجل يُدعى تسانتاو. كان البرد قارساً، واعتبر أصدقاء الرجل أن صديقهم التائه ذاك لاقى حتفه بكل تأكيد، غير أنه عاد بعد ستة عشر يوماً وقال إن القوم الصغار عثروا عليه وأخذوه إلى كهفهم، حيث أحسنوا معاملته وقدموا له الوافر من أصناف الطعام المختلفة، سوى الخبز. هذا الأخير كان عبارة عن أرغفة كبيرة، غير أنها كانت، كلما أخذها بيده ليأكل، تنكمش وتغدو قطع كعك هشة قابلة للتفتت فلا تسد رمقاً حتى لو داوم المرء على أكلها طوال النهار. بعد أن استراح قاموا بمرافقته لمسافة معينة في الطريق إلى داره، حتى بلغوا جدولاً صغيراً، بعمق يصل لركبة المرء، حيث قالوا له أن يخوض في مائه إلى أن يبلغ الطريق الرئيسة في الجهة المقابلة. خاض في تلك المياه ثم استدار لينظر خلفه، غير أن القوم الصغار كانوا قد اختفوا وغدا الجدول نهراً عميقاً. حين بلغ داره كانت رجلاه قد تجلدتا حتى ركبتيه ولم يعش سوى لأيام قليلة.

ذات يوم كان الـ يونْوي تسونسدي بالغي اللطف تجاه سكان إحدى القرى، فكانوا يساعدونهم بأعمالهم خلال الليل ويهتمون بالأولاد الذين يضلون طريقهم، إلى أن حصل شيء

Twitter: @ketab_n

نفرهم فقرروا حينذاك مغادرة المنطقة. الذين شهدوا الأمر في ذلك الوقت رأوا حشداً كاملاً من القوم الصغار وقد هبطوا إلى مخاضة[1] النهر وعبروها وغابوا في فوهة كهف كبير في الجهة الأخرى. انقطعت أخبارهم تماماً في محيط تلك القرية.

ومن أقوام الجن الآخرين كان هناك الـ يُوْنْوِي آماي يني هي، أو سكان الماء، الذين يعيشون في المياه، والذين يصلي لهم الصيادون طالبين مساعدتهم. كما ثمة أرواح ودودة أخرى تحيا في منازل البشر رغم أن أحداً لا يمكنه رؤيتها، وطالما أقامت الأرواح المذكورة في منزل معين وحمته، فليس بوسع أي ساحرة الاقتراب من ذلك البيت لاقتراف الأذى.

تساوا سي وتساغا سي هما اسمان لجماعتين صغيرتين من الجن تقترفان ما يكفي من الأذى، لكنهما، على الرغم من ذلك، تقومان بمساعدة الصياد الذي يصلي لهما. تساوا سي، أو تساوا سي أوسدي غا (تساوا سي الصغار)، هي جماعة يتميز أفرادها بصغر الحجم وبالوسامة الشديدة، إذ تلامس شعورهم الطويلة أقدامهم، وهم يعيشون في بقع معشوشبة عند أطراف التلال ويتمتعون بسلطان كبير في الصيد. ويمنح صيادو الغزلان الذين

(1) موضع من النهر يسهل خوضه (م).

Twitter: @ketab_n

يُصلون لهم القدرة على التسلل بين الحشائش للوصول خفية إلى الغزال. الـ تساغا سي، هم قوم آخرون من أقوام الروح ممن يستحضرهم الصيادون، وهم نافعون جداً، لكن إن تعثر إنسان أو سقط فهو يدرك أن الـ ساغا سي قد تسببوا في ذلك. كما ثمة العديد غيرهم من أقوام الجن هؤلاء ولكل منهم اسم، هم جميعاً خيرون، لكن الفارق يبقى في البراعة.

ثم هناك دي تساتا الذي كان صبياً لجأ إلى الغابات ليتجنب عملية الخدش[1] وهو يحاول منذ ذلك الحين البقاء متخفياً. وهو شاب صغير وسيم، يقضي كل وقته في صيد الطيور بواسطة بندقية النفخ[2] والسهام. للشاب أولاد كثر وهم جميعاً يشبهونه ويحملون اسمه. عندما يهب رف من الطيور على نحو مفاجئ ويطير كالمذعور، يكون السبب مطاردة دي تساتا له. فهو شاب ميال للأذى، يقوم، في بعض الأحيان، بإخفاء سهم يكون صياد طيور قد أطلقه في جو صاف، ثم بحث عنه مراراً ولم يجده. حينها يقول الصياد، «دي تساتا، إن سهمي معك، فإن لم تعطني إياه سوف أقوم بخدشك»، حينذاك، حين يبحث الصياد عن السهم ثانية، فإنه يجده.

---

(1) عمليات خدش الجلد وهرشه كانت تتبع عند الشيروكي في وصفات علاجية عديدة، كذلك في وصفات تقوية لاعبي الكرة وإعدادهم (م).

(2) أنبوب تطلق منه القذائف بالنفخ بواسطة الفم (م).

Twitter: @ketab_n

إحدى الأرواح تلك تطوف متجولة في الليل ومعها ضوء. ويسميها الشيروكي أتسيل - دِيهْيِي غي، «حاملة النار»، وهم يهابونها جميعاً إذ يعتبرونها خطيرة، رغم عدم معرفتهم الكثير عنها. حتى إنهم يجهلون شكلها، لأنهم إذ يلمحونها فهم يخافون التوقف والنظر إليها. فهي قد تكون ساحرة لا روحاً. والدة وافورد عندما كانت شابة، وكانت ذات يوم في طريقها إلى البيت ليلاً عائدة من مهمة تجارية في ساوث كارولينا، شاهدت «حاملة النار». بدت هذه الأخيرة خلفها وكأنها تتبعها. أحست المرأة بالخوف، فاستحثت حصانها بالسوط إلى أن ابتعدت عنها ولم ترها بعد ذلك قطّ.

Twitter: @ketab_n

دور البلدات المنقولة

في زمن بعيد، زمن حل قبل إخراج الشيروكي من ديارهم عام 1838، سمع الناس في منطقتي نهر فالي وهيواسي أصواتَ أرواح غير مرئية صدحت في الجو محذرة إياهم من حروب ومحن كان المستقبل يخبئها لهم، وقد دعتهم تلك الأصوات كي يأتوا للعيش مع الـ نوني هي، الخالدين، في ديارهم في أسفل الجبال وتحت المياه.

بقيت الأصوات في الجو لأيام عدة، وقد أنصت لها الناس إلى أن سمعوا الأرواح تقول: «إن أردتم العيش معنا، فلتجتمعوا بأسركم في دور بلداتكم ولتصوموا هناك طوال أيام سبعة، ويجب ألا يصدر أحد منكم، طوال ذلك الوقت، أي صرخة أو صيحة حرب. افعلوا هذا وسنأتي وسوف ترونا وسنأخذكم لتعيشوا معنا».

خاف الناس من الشرور الآتيو، وقد أدركوا أن خالدي الجبال والمياه يحيون في سعادة دائمة، فاجتمعوا في دور بلداتهم وقرروا

Twitter: @ketab_n

الذهاب معهم. سكان بلدة أنيسغايا يي جاؤوا بأسرهم إلى دار بلدتهم وصلوا وصاموا هناك لأيام ستة. في اليوم السابع دوى صوت من الجبال النائية واقترب وعلا حتى لف دار البلدة هدير الرعد، وأحس الناس بالأرض تميد تحتهم. حينذاك أصابهم الهلع، وقد صرخ بعضهم على الرغم من التحذير الذي كانوا قد تلقوه. الـ نوني هي، الذين كانوا قد رفعوا دار البلدة مع أساساته كي يحملوه وينقلوه، أُجفِلوا من تلك الصرخة، وقد أدى الأمر إلى سقوط جزء من الدار على الأرض، حيث نرى اليوم ركام سي تسي. ثم عادوا واستجمعوا قواهم وحملوا ما تبقى من دار البلدة، بجميع من ضم من البشر، ونقلوه إلى أعلى تسودا يي لون يي (القمة المتوحدة)، قرب نبع تشيُيُوا، حيث ما زال بوسعنا رؤيته، وقد حوله الزمن المديد إلى صخرة صلبة، أما الناس فيه فهم غير مرئيين وخالدون.

أهل بلدة أخرى في هيواسي، كانت تقع في المكان الذي نسميه اليوم دو ستييا لُون يي، حيث يصل جدول شوتينغ، تنادوا أيضاً للصلاة والصوم، ومع انقضاء الأيام السبعة جاء الـ نوني هي وأخذوهم معهم إلى قعر الماء. وهم هناك الآن، وحين تهب الريح لتموج سطح المياه في يوم صيفي حار، فإن بإمكان مرهفي السمع سماعهم يتحدثون في الأسفل. وعندما يلقي الشيروكي شباكهم في النهر لصيد السمك، فإن شباك السمك تلك تتوقف هناك

Twitter: @ketab_n

دائماً وتعلق، على الرغم من عمق المياه، ويدرك الناس حينذاك أن شباكهم مأسورة من قبل أنسبائهم الضائعين، الذين لا يودون الدخول في غياهب النسيان.

وعندما جرى نقل الشيروكي بالقوة إلى الغرب فإن أكثر مشاعر الندم عند أولئك المتواجدين بين هيواسي ونهر فالي تمثلت بإجبارهم على أن يتركوا خلفهم، وإلى الأبد، أقاربهم الذين ذهبوا إلى الـ نوني هي.

في نهر تنيسي، على مقربة من كينغستون وعلى مسافة 18 ميل تحت لودون، تنيسي، ثمة مكان يدعوه الشيروكي غوستي، حيث قامت هناك، منذ زمن بعيد إحدى القرى. لكن في إحدى الليالي، وفيما كان الناس متجمعين للرقص في دار البلدة، انهارت الضفة وأنزلتهم في النهر جميعاً. رجال المراكب الذين يمرون في الموضع بكَنْوُهم[1] يشاهدون القبة المستديرة لدار البلدة – وقد غدت الآن صخرة – تحتهم في المياه، كما يسمعون في بعض الأحيان قرع طبول وجلبة رقص يصعدان من الأسفل، وهم لا ينسون قطّ رمي طعام في المياه كي يسمح لهم بالمرور.

(1) مراكب الكَنْو الهندية (م).

Twitter: @ketab_n

مدافعو الروح في نيكواسي

في قديم الزمان اجتاحت قبيلة قوية غير معروفة البلاد من جهتها الجنوبية الشرقية، منزلة بالناس والقرى، أينما حلت، القتل والخراب. ولم يتمكن أي قائد من الوقوف في وجهها، فاستطاعت في فترة وجيزة تخريب جميع القرى الخفيضة والتقدم في الجبال. وقد جمع محاربو بلدة نيكواسي القديمة الواقعة عند منبع نهر تنيسي الصغير، نساءهم وأولادهم في دار بلدتهم وأبقوا الحراس مستنفرين على مدار الوقت أمام الخطر الداهم. وذات فجر قبيل انبلاج الضوء بقليل، رأى المراقبون العدو يتقدم فأطلقوا الإنذار في الحال. امتشق رجال نيكواسي سلاحهم واندفعوا لملاقاة الهجوم، إلا أنهم بعد قتال طويل عنيف أحسوا بالهزيمة وبدأوا يتقهقرون، حينها قام غريب من بينهم، على نحو مفاجئ، وصاح للزعيم كي يوقف رجاله، قائلاً إنه سوف يصد الأعداء بنفسه. أهل نيكواسي، وبالنظر إلى ثياب الغريب ولهجته، ظنوا أن الأخير هو زعيم جاء بتعزيزات من قرى أوفيرهيل في تنيسي.

Twitter: @ketab_n

انحدروا منسحبين على طول الطريق، وحين اقتربوا من دار البلدة رأوا جمعاً عظيماً من المحاربين يخرج عبر ما بدا مدخلاً مفتوحاً في طرف رابية الدار. حينذاك أدركوا أن أصدقاءهم هؤلاء كانوا الـ نوني هي، الخالدون، رغم أن لا أحد كان قد سمع من قبل بأنهم يحيون تحت رابية نيكواسي.

تدفق الـ نوني هي بالمئات، ممتشقين السلاح ومُمَوهين للقتال، وأغرب ما في الأمر كان تحولهم إلى أشخاص غير مرئيين ما إن أصبحوا خارج القرية، فغدا العدو، على رغم مشاهدته ومض السهام والتمْهُوْك[1]، وبرغم إحساسه بالضربات النازلة عليه، غافلاً عمن كان يُصدرها.

أمام هكذا خصم خفي ما لبث الغزاة أن اضطروا إلى التقهقر متوجهين في البداية إلى الجنوب على طول السلسلة الجبلية التي تلاقي السلسلة الرئيسة الفاصلة بين المجال الفرنسي وبين توكاسيجي، ومن ثم انحرفوا مع السلسلة المذكورة إلى الشمال الشرقي. خلال تقهقرهم حاولوا الاحتماء خلف الصخور والأشجار، لكن سهام الـ نوني هي التفت حول الصخور وقتلتهم من الجهة الأخرى، ولم يعد بوسعهم العثور على مكان يحتمون

(1) أو التوماهوك، وهو فأس يمتشقها الهنود الحمر سلاحاً وأداة (م).

Twitter: @ketab_n

فيه. فأخذوا يتساقطون طوال مسيرهم في السلسلة الجبلية، وحين وصلوا إلى منبع نهر توكاسيجي لم يتبق منهم أكثر من اثني عشر شخصاً، فجلسوا خائبين وبكوا طالبين الرحمة. منذ ذلك الحين سمى الشيروكي المكان دايولسون يي، «حيث بكوا». ثم جاء زعيم الـ نوني هي وأخبرهم أنهم يستحقون العقاب نظراً لمهاجمتهم قبيلة مسالمة، وقد صفح عنهم وقال لهم أن يذهبوا إلى ديارهم ويخبروا شعبهم بما جرى معهم. كان ذلك تقليداً هندياً، أن يتم دائماً الصفح عن بعضهم ليعودوا حاملين أخبار الهزيمة. مضوا عائدين إلى ديارهم في الشمال وعاد الـ نوني هي إلى الهضبة. وهم ما زالوا هناك، إذ حين جاءت فرقة قوية من قوات الفدرالية، في الحرب الأخيرة، لمفاجأة بعض جنود الكونفدرالية الذين كانوا متمركزين هناك، رأوا حشداً كبيراً من الجنود يقوم بحراسة البلدة فخافوا وتراجعوا من دون تنفيذ الهجوم.

وهناك قصة أخرى تقول إنه، حين ذهب جميع محاربي إحدى القرى مرة للصيد، أو للرقص في قرية أخرى، كان ثمة شيخ يقطع الحطب عند طرف السلسلة الجبلية وقد جاءت إليه، على نحو مفاجئ، مجموعة من العدو - شاوانو، سينيكا، أو قبيلة أخرى غيرهما. قاذفاً الشخص الأقرب منه بفأسه، استدار

Twitter: @ketab_n

وركض إلى بيته ليحضر سلاحاً وليتخذ أفضل الدفاعات الممكنة. حين خرج من البيت مسرعاً شاهراً سلاحه فاجأه حشد كبير من المحاربين الغرباء يقوم بصد العدو. لم يكن الوقت مناسباً للسؤال فاتخذ موقعه بين الآخرين، حيث نشب قتال عنيف صُدّ على أثره العدو نحو الجدول إلى أن ألحقت في النهاية الهزيمة به وتقهقر عبر الجبال. حين قضي الأمر وصار بالإمكان تنشق بعض الهواء، توجه الشيخ ليشكر أصدقاءه الجدد، لكنه وجد أنه وحيد هناك - إذ أنهم اختفوا كأن الجبال ابتلعتهم. حينها أدرك أن هؤلاء كانوا الـ نوني هي، وقد جاؤوا لمساعدة الشيروكي، أصدقاءهم.

Twitter: @ketab_n

تسول كالو أو المارد المائل العينين

في قديم الزمان عاشت أرملة مع ابنتها في بلدة كانوغا القديمة عند نهر بيجون[1]. وكانت الابنة في عمر الزواج، وكانت والدتها تحدثها في صالحها وتدعوها إلى الحرص على عدم الزواج إلا من صياد ماهر، فيكون لهما من يعتني بهما، ويكون اللحم على الدوام وافراً في بيتهما. قالت الفتاة إنه لمن الصعب العثور على شخص من هذا النوع، إلا أن والدتها نصحتها بعدم الاستعجال، وبأن تنتظر مجيء الشخص المناسب.

حينذاك نامت الأم في البيت فيما نامت الابنة في الخارج، في الآسي[2]. في إحدى الليالي الكالحات جاء غريب إلى الآسي ليتقرب من الفتاة، لكنها قالت له إن والدتها لن تسمح لها بالزواج إلا من صياد ماهر. فقال الغريب: «حسناً أنا صياد عظيم»، فتزوجته الفتاة. وقبيل طلوع النهار قال إن عليه العودة

(1) أي نهر الحمائم (م).

(2) بيت شتوي صغير، دائري الشكل، يشبه قفير النحل أو سلة مقلوبة رأساً على عقب، ومطمور بجزء منه في التراب. صغر هذا البيت وانخفاضه يجعله أكثر دفئاً (م).

Twitter: @ketab_n

في الحال إلى دياره، وإنه مع ذلك كان قد جلب بعض اللحم لوالدتها، وهي سوف تجده في الخارج. ثم غادر ولم تره الفتاة. عندما طلع النهار قامت إلى الخارج ووجدت غزالاً، فأخذته إلى والدتها في البيت، وقالت لها إنه هدية من زوجها. سُعدت الأم وأعدت وابنتها شرائح الغزال للفطور.

جاء مرة أخرى في الليلة التالية، لكنه غادر أيضاً قبل طلوع النهار، وقد ترك في الخارج غزالين هذه المرة. كانت سعادة الأم حينذاك أكبر، لكنها قالت لابنتها: «أتمنى لو يجلب لنا زوجك بعض الحطب». بعد ذلك، وقد صار الغريب يعرف أفكارهما أينما كان، قال للفتاة حين أتى في المرة التالية: «أخبري والدتك بأنني أحضرت الحطب»، وحين تفقدت جوار البيت في الصباح وجدت شجرتين ضخمتين وقد مُددتا أمام المدخل، بكل جذورهما وأغصانهما. غضبت المرأة المسنة وقالت: «لو أنه جلب لنا حطباً يسعنا استخدامه بدل هاتين الشجرتين اللتين لا يمكننا تقطيعهما واللتين تعيقان الطريق بالأغصان». علم الصياد بما قالت، وعندما جاء في المرة التالية لم يحضر شيئاً، وإذ تفقدتا محيط البيت في الصباح كانت الشجرتان قد اختفتا ولم يعد ثمة حطب البتة، فكان على العجوز الذهاب لتحضر بعض الحطب بنفسها.

Twitter: @ketab_n

كل ليلة تقريباً كان يأتي لرؤية الفتاة، وكان في كل مرة يجلب معه غزالاً أو غيره من الطرائد، لكنه ظل على عادته في المغادرة قبل طلوع الضوء. في النهاية قالت الوالدة لابنتها: «زوجك يغادر دائماً قبل طلوع الضوء. لماذا لا ينتظر؟ أريد أن أرى أي صهر هذا هو صهري». حين قالت الفتاة لزوجها هذا الكلام أجاب بأنه لا يستطيع أي يدع المرأة المسنة تراه، لأن منظره قد يخيفها. قالت الفتاة: «لكنها تريد رؤيتك في كل الأحوال»، وراحت تبكي، حتى اضطر إلى القبول أخيراً، غير أنه حذرها من أن على والدتها ألا تقول إنه يبدو مخيفاً (أوسغا سي تي يو).

في الصباح التالي لم يغادر مبكراً، بل انتظر في الآسي، وحين طلع الضوء خرجت الفتاة وأخبرت والدتها بأنه بالانتظار. جاءت المرأة المسنة ونظرت إلى الداخل، فرأت مارداً عظيماً عيناه طويلتان مائلتان (تسول كالو)، مستلقياً على الأرض، مسنداً رأسه على روافد السقف في أقصى زاوية اليسار وملامساً السقف بأصابع قدميه في أقصى الزاوية اليمنى بمحاذاة الباب. ألقت المرأة نظرة واحدة لا غير ثم ركضت عائدة إلى البيت وهي تصيح، «أوسغا سي تي يو! أوسغا سي تي يو!».

Twitter: @ketab_n

غضب تسول كالو غضباً شديداً. استقام بجسده وخرج من الآسي، مودعاً الفتاة وقائلاً لها إنه لن يدع والدتها تراه ثانية، بل سيعود إلى بلاده. ثم مضى باتجاه تسونيغون يي.

في إحدى الليالي وبعد أن ذهبت الفتاة للنوم في الآسي جاء زوجها ووقف عند الباب وقال لها: «تبدين بمفردك»، وسأل عن الطفل. أجابته أنه ليس ثمة من طفل. ثم سألها عن الدم، فقالت له إن أمها ألقته في النهر. دلته على موقع المكان، فذهب إليه ووجد في الماء دودة صغيرة. أخرج الدودة من الماء وحملها وذهب بها إلى الآسي، وخلال مسيره اتخذت الدودة شكلاً وبدأت تنمو، حتى صارت مع بلوغه الآسي طفلة أنثى كان يحملها بين يديه. أعطاها لزوجته وقال: «والدتك لا تحبني كما أنها تسيء معاملة طفلتنا، فهلمّي إلى دياري». أرادت الفتاة أن تكون مع زوجها، وهكذا، بعد أن ودعت والدتها، حملت الطفلة ومضت مع زوجها إلى تسونيغون يي.

حينذاك، وقد كان للفتاة أخ أكبر منها سناً يعيش مع زوجته في قرية أخرى، فحين سمع بزواج شقيقته جاء لزيارتها وزوجها الجديد، لكنه ما إن وصل إلى كانوغا حتى أخبرته أمه بأن شقيقته أخذت طفلتها وذهبت مع زوجها إلى مكان لا يعرفه أحد. تأسف

Twitter: @ketab_n

الابن لرؤية والدته وحيدة هكذا، وقال إنه سيذهب للبحث عن شقيقته والعودة بها. كان من السهل تتبع آثار أقدام المارد، وقد مضى الشاب في الطريق إلى أن بلغ مكاناً كانا قد استراحا فيه وكان ثمة آثار تشير إلى استلقاء طفل على الأرض وأخرى توحي وكأن طفلاً قد ولد هناك. أكمل مسيره في ذلك الطريق إلى أن بلغ مكاناً آخر كانا قد استراحا فيه، وكان ثمة آثار دبيب طفل في الأرجاء وأخرى لاستلقائه على الأرض. أكمل طريقه وبلغ مكاناً كانا قد استراحا فيه أيضاً، فكان هناك آثار طفل يركض وآخر يمشي. استمر في تتبع الطريق بمحاذاة نهر عبر الجبال، حتى بلغ مكاناً كانوا جميعاً قد استراحوا فيه مرة أخرى، وفي ذلك الوقت كان ثمة آثار أقدام لطفلين ركضا في الأرجاء، وكانت تلك الآثار ما زالت بادية على صخرة في ذلك المكان.

مرتان إضافيتان عاد الشاب وعثر على موضع كانوا قد استراحوا فيه. ثم قادته الطريق ليصعد في منحدر تسونيغون يي، وقد تناهت لسمعه هناك أصوات طبول وجلبة، وكأن ثمة أناس يرقصون في داخل الجبل، غير أن الصخرة كانت ملساء وشديدة الانحدار فتعذر عليه تسلق طرفها، ولم يتمكن سوى من النظر من فوق حافتها ليشاهد رؤوس وأكتاف أناس كثر يرقصون في

Twitter: @ketab_n

الداخل. رأى شقيقته ترقص بينهم فناداها كي تخرج. النفتت حين سمعت صوته، وما إن توقف قرع الطبول قليلاً حتى خرجت إليه، وقد انزلقت عن الصخرة من دون صعوبة تُذكر، جارة ولديها الصغيرين بيديها. سرها كثيراً لقاء شقيقها فحادثته طويلاً، غير أنها لم تدعه إلى الدخول، فغادر في النهاية من دون مقابلة زوجها.

مرات عديدة أخرى جاء الشقيق إلى الجبال، لكن شقيقته على الدوام كانت تلقاه في الخارج، ولم يتسن له البتة رؤية زوجها. وذات يوم، بعد مرور أربعة أعوام، مرت الابنة بمنزل والدتها قائلة إن زوجها كان يصطاد في الغابات المجاورة، وإنهم يستعدون للعودة إلى ديارهم غداً، وإن والدتها وشقيقها، إن مرا بهم في الصباح الباكر، يمكنهما رؤية زوجها. فيما لو جاءا متأخرين في سبيل ذلك فإنهما سوف يجدان لحماً وافراً ليأخذانه معهما إلى الديار. عادت الابنة إلى الغابات، وأسرعت الأم كي تخبر ابنها. جاءا إلى المكان في الصباح الباكر، لكن تسول كالو وعائلته كانوا قد غادروا قبل وصولهما. على أعمدة التجفيف وجدا غزلاناً معلقة كانت قد اصطيدت لتوها، وكان ثمة الوافر منها، كما وعدت الابنة، حتى إنهما ذهبا وأخبرا جميع أصدقائهما كي يأتوا ويأخذوا من اللحم الذي بدا كافياً للقرية بأسرها.

Twitter: @ketab_n

ظل الشقيق يطلب رؤية شقيقته وزوجها، فذهب إلى الجبال مرة أخرى، وخرجت الشقيقة لتلقاه. سألها رؤية زوجها، وقالت له هذه المرة أن يدخل معها. عبرا في ما يشبه المدخل، وقد وجد أن الداخل يبدو مثل دار بلدة كبير. كان يبدو الأمر وكأنهما بمفردهما، لكن الشقيقة صاحت بصوت عال: «يريد رؤيتك»، ومن الهواء جاء صوت: «لا يمكنك رؤيتي إلى أن ترتدي ثوباً جديداً. حينذاك سوف تراني».

«أنا مستعد لهذا»، أجاب الشاب موجهاً كلامه إلى الروح الخفية، ومن الهواء جاءه الصوت مرة أخرى: «اذهب أدراجك ثم قل لأناسك إنهم لو أرادوا رؤيتي عليهم الدخول إلى دار البلدة والصيام لسبعة أيام، وعليهم ألا يخرجوا من دار البلدة أو أن تعلو صيحة الحرب طوال ذلك الوقت، وفي اليوم السابع سوف آتي ومعي لكم ثياباً جديدة كي تلبسونها فيتسنى لجميعكم حينذاك رؤيتي».

طفق الشاب عائداً إلى كانوغا وأخبر الناس بما سمعه. كانوا جميعاً يودون رؤية تسول كالو الذي امتلك طرائد الجبال كلها، فقاموا إلى دار البلدة وبدأوا بالصيام. صاموا اليوم الأول واليوم الثاني وكل يوم لغاية السابع، فعلوا ذلك جميعاً ما عدا رجل من

Twitter: @ketab_n

قرية أخرى، كان ينسل إلى الخارج كل ليلة حين يحل الظلام فيحصل على شيء يأكله ثم ينسل عاداً إلى دار البلدة بغفلة عن الجميع. في صباح اليوم السابع كانت الشمس تصعد لتوها في الشرق حين سمعوا جلبة عظيمة كمثل هدير صخور تتدحرج من طرف تسونيغون يي. أصابهم الهلع في دار البلدة، فاقتربوا من بعضهم بعض ولم يصدر أحد منهم صوتاً.

اقترب الصوت وعلا إلى أن استحال هديراً مروعاً، فأخذ كل واحد منهم يرتجف حابساً أنفاسه، ما عدا رجلاً واحداً، هو ذلك الغريب من القرية الأخرى، والذي أفقده الخوف حواسه فخرج من دار البلدة راكضاً ومطلقاً صيحة الحرب.

توقف الهدير في الحال وساد الصمت لبعض الوقت. ثم عادوا وسمعوه، لكنه بدا مبتعداً هذه المرة، وقد زاد من ابتعاده أكثر فأكثر ليتلاشى في النهاية بناحية تسونيغون يي، وليحل الصمت من جديد. خرج الناس من دار البلدة، لكن الصمت كان سائداً، ولم يتمكنوا من مشاهدة أكثر مما كانوا يشاهدونه من قبل خلال الأيام السبعة الماضية.

إلا أن همة الشقيق لم تثبط، بل ذهب مجدداً لرؤية شقيقته، فاصطحبته عبر الجبل. سألها عن سبب عدم قيام تسول كالو

Twitter: @ketab_n

بإحضار الثياب الجديدة كما كان قد وعد، فجاء صوت من الهواء وقال: «لقد جئتكم بالثياب لكنكم لم تمتثلوا لكلامي، بل أفسدتم الصوم وأعليتم صيحة الحرب».

أجابه الشاب: «لم يفعل هذا أحد منا، بل شخص غريب. لو تأتي من جديد فأننا بالتأكيد سننفذ ما تقول».

لكن الصوت قال له: «الآن لم يعد بوسعكم رؤيتي».

حينذاك عجز الشاب عن قول أي شيء ومضى عائداً إلى كانوغا.

Twitter: @ketab_n

كانا ستا أو القرية الضائعة

في قديم الزمان، فيما كان الناس ما زالوا يعيشون في بلدة كانا ستا القديمة، على ضفاف نهر «فرنش بورد»[1]، جاء إلى القرية في أحد الأيام غريبان، لم يختلفا بشيء عن أي شيروكي آخر، وقادتهما الدرب إلى دار الزعيم. وبعد الاستقبال والمجاملة سألهما الزعيم عن القرية التي جاءا منها، معتقداً أنهما من إحدى القرى الغربية، لكنهما قالا: «نحن من شعبكم وقريتنا هي في الجوار، غير أنكم لم تشاهدوها من قبل. الحروب والأمراض تسود هنا، والأعداء من كل جانب، وبعد حين سيأتيكم عدو يفوقكم قوة فينتزع بلادكم منكم، فيما نحن سعداء على الدوام وقد جئنا كي ندعوكم للعيش معنا في بلدتنا هناك»، وقد أشارا إلى نواحي تسُوا تيل دا (بايلوت نوب). «نحن لا نحيا إلى الأبد، ولا نجد الطرائد على الدوام حين نسعى لها، إذ أن تسول كالو الذي يعيش في تسونيغون يي يملك الطرائد، لكن السلام مقيم عندنا، فلا نفكر بالخطر. علينا الذهاب الآن، وإن أراد

(1) نهر يتدفق من مقاطعة ترانسلفانيا في نورث كارولينا إلى تنيسي (م).

Twitter: @ketab_n

شعبك العيش معنا فليصوموا سبعة أيام، وسوف نأتي بعد ذلك لنأخذهم». ثم مضيا في اتجاه الغرب.

دعا الزعيم شعبه للاجتماع في دار البلدة، وقد عُقد هناك مجلس للتداول في الأمر وتقرر في النهاية الذهاب مع الغريبين. أعدوا جميع ما يملكونه للنقل، ثم عادوا إلى دار البلدة وبدأوا صيامهم. صاموا ستة أيام، وفي صبيحة اليوم السابع قبل طلوع الشمس، شاهدوا جمعاً عظيماً قادماً عبر الطريق من الغرب، يتقدمه الرجلان اللذان اجتمعا مع الزعيم. بدا القادمون وكأنهم شيروكي من قرية أخرى، وبعد اجتماع ودي ساهموا في حمل بعض الأمتعة التي سوف تنقل، وانطلقت الجماعتان معاً إلى تسُوا تيل دا. كان ثمة رجل من قرية أخرى يقوم بزيارة كانا ستا، وقد ذهب معهم.

حين بلغوا الجبل، تقدمهم الدليلان في الدخول إلى كهف بدا كمثل باب مشرع في جانب الصخرة. في الداخل وجدوا بلاداً مفتوحة وبلدة تنتظم بيوتها في صفين طويلين من الشرق إلى الغرب. أناس الجبل سكنوا البيوت في جهة الجنوب، وقد أعدوا البيوت الأخرى لاستقبال الوافدين الجدد، لكن وحتى بعد أن انتقل جميع القادمين من كانا ستا، مع أولادهم ومتاعهم

Twitter: @ketab_n

إلى تلك البيوت، فقد بقي عدد كبير منها خالياً ينتظر آخرين قد يأتون. كما أخبرهم أناس الجبل بأن هناك بلدة أخرى، يسكنها أناس آخرون، تقع فوقهم في الجبل عينه، في ارتفاع أعلى عند القمة الأخيرة، وهم الـ آني – هيون تيكوالا سكي (الرعود).

كان شعب كانا ستا كله حينذاك قد أقام في بيوته الجديدة، ما عدا الرجل الذي جاء معهم لمجرد الزيارة، فقد أراد العودة إلى أصدقائه. حاول عدد من سكان الجبال إقناعه بألا يفعل، لكن الزعيم قال: «لا، دعوه يرحل إن أراد ذلك، وحين يخبر أصدقاءه ربما يودون المجيء أيضاً. فثمة مكان لكل من يأتي». ثم توجه الزعيم بكلامه للرجل: «عُد وأخبر أصدقاءك أنهم لو أردوا المجيء والعيش معنا وأن يكونوا سعداء على الدوام، فثمة مكان هنا جاهز وبانتظارهم. آخرون منا يحيون في داتسو نالاسغون يي وفي الجبال العالية المنتشرة في الجوار، فإن أرادوا الذهاب إلى أي من هذه الجماعات فالأمر سيان. نحن نراكم كيفما توجهتم وإننا معكم في كل رقصاتكم، لكن لن تتمكنوا من رؤيتنا إلا إذا صمتم. إن أردتم رؤيتنا، صوموا لأيام أربعة، فسنأتي بعد ذلك ونتحدث معكم، وإن رغبتم في العيش معنا، صوموا من جديد لأيام سبعة، فسوف نأتي لأخذكم». ثم قاد الزعيم الرجل عبر

Twitter: @ketab_n

الكهف إلى خارج الجبل وتركه هناك، لكن حين نظر الرجل خلفه لم ير كهفاً، بل مجرد صخرة صلبة.

لم يظهر سكان القرية الضائعة إثر ذلك البتة، وهم ما زالوا يعيشون في تسُوا تيل دا. أشياء غريبة تحدث هناك، فيدرك الشيروكي أن ذلك الجبل مرصود ولا يحبون الاقتراب منه. منذ سنوات قليلة خلت أقامت مجموعة من الصيادين معسكراً هناك، وإذ جلس الصيادون حول النار في وقت العشاء، تناولوا تلك القصة في أحاديثهم وتبادلوا دعابات فظة حول سكان كانا ستا القديمة. في تلك الليلة استفاقوا على صوت جلبة كصوت حجارة تسقط عليهم من بين الأشجار، غير أنهم لم يجدوا أحداً حين بحثوا في المكان، فتملكهم خوف شديد جعلهم يجمعون أسلحتهم وحقائبهم ويغادرون المكان.

Twitter: @ketab_n

تسُوي ناهي: أسطورة بيلوت نوب

في بلدة كانوغا القديمة الواقعة عند نهر بيجون، كان هناك رجل كسول يدعى تسُوي ناهي، وقد عاش متنقلاً من بيت إلى آخر من بيوت أقاربه ولم يجلب معه في يوم من الأيام طريدة واحدة، رغم أنه كان يقضي معظم وقته في الغابات. تعب أصدقاؤه في النهاية من إيوائه، فطلب منهم أن يعدوا له بعض الذرة المحمصة ليذهب ويصطاد غزالاً، أو أي طريدة أخرى، فلا يعود عبئاً عليهم. قاموا بملء حقيبته بالذرة المحمصة التي تكفي رحلة طويلة، وانطلق ذاهباً إلى الجبال. مر يوم إثر آخر حتى اعتقدوا أنهم لن يروه مرة أخرى، غير أنه وقبل انتصاف الشهر كان قد عاد إلى كانوغا، من دون غزال، بل بحكاية مدهشة ليرويها.

قال إنه ما كاد ينحرف عن الطريق ليصعد السلسة الجبلية حتى التقى غريباً، سأله عن وجهة سيره. أجابه تسُوي ناهي أن أصدقاءه في القرية قاموا بطرده لأنه لم يكن صياداً ماهراً، وأنه

Twitter: @ketab_n

إن لم يجد غزالاً هذه المرة فلن يكون بوسعه العودة مرة أخرى. فقال الغريب: «لماذا لا تأتي معي؟ فقريتي ليست بعيدة من هنا، ثم إن لك أقارب فيها». سُعد تسُوي ناهي كثيراً بتلك الفرصة لأن العودة إلى بلدته من دون غزال كانت تخجله للغاية، فقام بمرافقة الغريب الذي اصطحبه إلى تسُوا تيل دا (بيلوت نوب). وصلا إلى كهف، وقال له مرافقه: «فلندخل من هنا»، غير أن الكهف كان يمتد على نحو واضح في قلب الجبل، وحين صارا في الداخل وجد الصياد بلاداً مفتوحة كمثل أرض خفيضة شاسعة، وقد كان فيها قرية كبيرة وبشر بالمئات. وكان الجميع مسروراً برؤيته، وقاموا باصطحابه إلى زعيمهم الذي استضافه في بيته وقاده إلى مقعد قرب النار. جلس تسُوي ناهي، لكنه أحسّ بالمقعد تحته يتحرك، وحين أمعن النظر وجد أن المقعد ذاك كان سلحفاة وقد مدت رأسها خارج القوقعة. قفز في مكانه، لكن الزعيم قال له: «هي لن تؤذيك، إنها فقط تريد التعرف عليك». عاد وجلس بحذر شديد، فقامت السلحفاة بإدخال رأسها. جلبوا له طعاماً لا يختلف عن الطعام الذي اعتاد عليه في قريته، وحين فرغ من الأكل اصطحبه الزعيم وجال معه في القرية حتى شاهد جميع بيوتها وتحادث مع معظم سكانها. وإذ شاهد كل شيء هناك وارتاح لأيام عدة، تاق للعودة إلى بلدته،

Twitter: @ketab_n

فقام الزعيم ورافقه بنفسه إلى مدخل الكهف ودله على الطريق الذي ينزل إلى النهر. ثم قال له: «أنت عائدٌ الآن إلى القرية، غير أنك لن تهنأ هناك بعد اليوم. متى شئت العودة إلينا فأنت تعرف الطريق». تركه الزعيم، فانحدر تسُوي ناهي نازلاً الجبل بمحاذاة النهر إلى أن بلغ كانوغا.

روى تسُوي ناهي قصته، لكن أحداً لم يصدقها وقد ضحك الناس منه وحسب. بعد ذلك صار يذهب في أوقات كثيرة وكان أحياناً يغيب لأيام عدة، ويقول حين يعود إلى القرية إنه كان مع سكان الجبل. في آخر الأمر قال أحد الرجال إنه صدق القصة ويود الذهاب معه ليرى. انطلقا إلى الغابات معاً، حيث عسكرا، ثم قام تسُوي ناهي بعد ذلك بإكمال طريقه قُدُماً قائلاً إنه سيعود بعد وقت قصير. بقي مرافقه بانتظاره وقد أخذ يمارس بعض الصيد قرب المعسكر، وبعد مضي ليلتين عاد تسُوي ناهي. وكان يبدو بمفرده، إلا أنه وخلال قدومه كان يتحدث، وقد سمع الصياد الآخر أصوات فتيات رغم من عدم رؤيته لأحد. عندما بلغ موضع النار قال: «برفقتي صديقتان، وهما تقولان إن الرقص سيقام في بلدتهما بعد ليلتين، وإن أردت الذهاب فسوف تأتيان لاصطحابك». وافق الصياد على الفور، فقام تسُوي ناهي برفع

Twitter: @ketab_n

صوته وكأنه يخاطب شخصاً بقربه: «يقول إنه سيذهب». ثم قال: «لقد جاءت أختانا للحصول على شيء من لحم الغزال». كان الصياد قد أردى غزالاً وراح يجفف لحمه فوق النار، فقال حينذاك: «من أي نوع تريدان؟». فأجاب صوتهما: «قالت لنا أمنا أن نحضر شيئاً من الأضلاع»، لكنه ظل غير قادر على رؤيتهما. قطع بعضاً من لحم الضلع وأعطاه لتسُوي ناهي الذي أخذ اللحم وقال: «بعد يومين سنعود إليك مرة أخرى». حينها انطلق، وقد سمع الآخر الأصوات تبتعد في الغابات إلى أن ساد الصمت من جديد.

بعد يومين عاد تسُوي ناهي، وهذه المرة كان يصطحب فتاتين. حين وقفوا قرب النار لاحظ الصياد أن أقدام الفتاتين قصيرة مستديرة، وهي تكاد تشبه براثن الكلاب، لكنهما همتا بالجلوس ما إن لمحتاه ينظر وذلك كي تحرماه من رؤية أقدامهما. بعد العشاء غادر الجميع المعسكر ومضوا بمحاذاة الجدول إلى تسُوا تيل دا. عبروا من خلال مدخل الكهف حتى بلغوا أقصى أعماقه وصار بإمكانهم رؤية بيوت وراء ذلك، إلى أن أحس الصياد فجأة بتيبس في رجليه وأخذ يرتعش وسقط أرضاً. رفعه الآخرون، لكنه ظل عاجزاً عن الوقوف، إلى أن قام الساحر

Twitter: @ketab_n

بإحضار بعض «التبغ القديم» وفركه برجليه وجعله يتنشق رائحته حتى أخذ يعطس. حينها استعاد قدرته على الوقوف ودخل مع الآخرين. لم يستطع الاحتمال في البداية، إذ أنه لم يكن قد أعد نفسه من خلال الصوم قبل الشروع في الدخول.

لم يكن الرقص قد بدأ بعد فقام تسُوي ناهي باصطحاب الصياد إلى دار البلدة ودله على مقعد قرب النار، غير أن المقعد ذاك كان يضم أشواكاً من أشجار الخروب منبثقة منه فخاف الصياد من الجلوس. فقال له تسُوي ناهي ألا يخاف، فجلس وأحس بأن الأشواك ناعمة كالريش. حينذاك جاء الطبال والراقصون وبدأ الرقص. وسار أحد الرجال في حاشية الرتل وأخذ يصيح كو!كو! بلا توقف وذلك من دون أن يرقص بنفسه. تساءل الصياد حول الأمر فقالوا له: «هذا الرجل كان تائهاً في الجبال وقد ظل ينادي على أصدقائه حتى أتلف صوته ولم يعد بوسعه سوى الزفير بـ كو!كو! حتى عثرنا عليه وأدخلناه إلى هنا».

حين انتهى ذلك عاد تسُوي ناهي والصياد إلى القرية. خلال الرقص الذي تلا ذلك في كانوغا رَوَيا كل ما كانا قد شهداه في تسُوا تيل دا، عن القرية الكبيرة التي كانت هناك وعن دمائة كل شخص التقياه فيها، ولأنهما كانا شخصين هذه المرة فقد

Twitter: @ketab_n

صدق الناس روايتهما. حينذاك أراد الجميع أن يذهب، لكن تسُوي ناهي أخبرهم بوجوب صومهم أولاً لسبعة أيام، وبأنه في تلك الأثناء عليه أن الذهاب قبلهم لإجراء التحضيرات ثم يعود ويصطحبهم. مضى تسُوي ناهي قبلهم وبدأ الجميع بالصوم، حتى حل اليوم السابع، فعاد إليهم وذهبوا معه إلى تسُوا تيل دا، ولم يرهم أحد من أصدقائهم في القرية بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

الرجل الذي تزوج شقيقة الرعد

كان الناس في الأزمنة القديمة يرقصون في معظم الوقت ويفعلون ذلك طوال الليل. ذات يوم أقيم الرقص في بلدة ساكوي بي القديمة، عند منبع نهر تشاتاهوتشي[1]، وبعد أن بدأ الرقص بنجاح جاءت امرأتان لهما شعر جميل طويل وانضمتا إلى الحلقة، غير أن أحداً لم يعرف هويتهما أو يدرك وقت وصولهما. رقصت كل واحدة منهما مع شريك تلو آخر، وفي الصباح غادرتا خلسة من دون أن يلحظ أحد رحيلهما، لكن محارباً شاباً كان أغرم بإحدى الأختين نظراً لجمال شعرها، ثم التزاماً بعادات الشيروكي، سألها عبر أحد الرجال المسنين، إن كانت ترضى بالزواج منه وتدعه يعيش معها. فكان جواب الشابة أن عليها استشارة شقيقها في دارها أولاً، ووعدت هي وأختها بالعودة بالجواب خلال حفلة الرقص القادمة بعد سبعة أيام، لكن على الشاب في الأثناء، وإن كان يحبها فعلاً، إثبات

(1) نهر ينبثق من نبع تشاتاهوتشي في جبال الأبالاتشي شمال شرق جورجيا، على مقربة من كارولينا الشمالية والجنوبية، ويجري قدماً نحو الجنوب الغربي فيبلغ مدينة أتلانتا ويخترق ضواحيها (م).

Twitter: @ketab_n

ذلك عبر صوم صارم حتى ذلك الوقت. فوافق العاشق الولهان على الفور وأخذ يعد الأيام متبرماً.

بعد سبعة أيام أقيم الرقص ثانية. دخل المحارب الشاب في الرقص مبكراً، وفيما بعد ظهرت الأختان على نحو مفاجئ كما في السابق. أبلغتاه موافقة شقيقهما، وأنهما سوف تصطحبانه إلى دارهما ما إن ينتهي الرقص، لكنهما حذرتاه من الموت المحتم إن أخبر أحداً عن المكان الذي ذهب إليه أو عما رآه فيه.

رقص معهما مرة أخرى وحين اقترب طلوع الضوء غادر الثلاثة قبل انتهاء الرقص بقليل، وذلك كي يتجنبوا لحاق أحد بهم، ومضوا في طريقهم معاً. قادته المرأتان في طريق عبر الغابات لم يسبق للشاب أن رآه، حتى بلغوا جدولاً صغيراً، حيث خطتا في المياه من دون أي تردد. وقف الشاب على الضفة متعجباً وقال في نفسه: «إنهما تمشيان في الماء، وأنا لا أريد القيام بهذا». أدركت المرأتان أفكاره كأنه نطق بها وقالتا له: «هذه ليست ماء، إنها الطريق إلى دارنا». ظل متردداً، لكنهما حثتاه على النزول إلى أن خطا في الماء ووجد أن ذلك ليس سوى عشب أملس يكون طريقاً حسناً.

Twitter: @ketab_n

مضوا في الطريق إلى أن بلغوا مجرى مائياً كبيراً حيث أذرك الشاب بأنه جزء من نهر تاللولا[1]. خاضت المرأتان في المياه من دون وجل، إلا أن المحارب الشاب ظل واقفاً على الضفة متردداً وقائلاً في نفسه إن «المياه بالغة العمق وسوف تغرقني، فلا يسعني النزول». أدركتا أفكاره فاستدارتا وقالتا له: «هذه ليست ماء، بل هي الطريق الرئيسة التي تقود إلى بيتنا الذي بات قريباً». خطا نازلاً، وبدل الماء كان هناك أعشاب وارفة متموجة تخطت بطولها رأسه قليلاً فيما مشى في إثرهما.

لم يقطعوا سوى مسافة قصيرة حتى بلغوا كهفاً صخرياً في أسفل أوغون يي (شلالات تاللولا). دخلت المرأتان، فيما وقف المحارب عند المدخل، لكنهما قالتا له: «هذا هو بيتنا، أدخل وبعد قليل سيكون شقيقنا هنا، إنه آت في هذه الأثناء». سمعوا في المسافة رعداً خافتاً. دخل المحارب وبقي على مسافة قريبة من المدخل. ثم خلعت المرأتان شعرهما الطويل وعلقتاه في أعلى الصخرة، فبدا رأس كلتيهما أملس كاليقطينة. فكر الرجل: «هذا ليس شعراً على الإطلاق»، وتملكه رعب أكبر من ذي قبل.

(1) نهر صغير في ولايتي جورجيا ونورث كارولينا (م).

Twitter: @ketab_n

حينها جلست المرأة الصغرى، التي كان على وشك الزواج منها، وقالت له أن يجلس على مقعد بقربها. نظر فرأى أن المقعد ذاك كان سلحفاة ضخمة، إذ قامت هذه الأخيرة ورفعت نفسها وأخرجت براثنها كأنها غاضبة. رفض الشاب الجلوس قائلاً إن المقعد ليس سوى سلحفاة، لكن المرأة أصرت على أن ذلك كان مقعداً. حينها دوى رعد بهدير أعلى فقالت المرأة: «لقد بات شقيقنا الآن قريباً من البيت». وفيما كانتا تلحان عليه ويصر هو على رفضه الاقتراب أو الجلوس، دوى خلفه فجأة رعد عظيم، فاستدار بسرعة ورأى رجلاً يقف عند مدخل الكهف.

قالت المرأة: «هذا هو أخي»، ودخل الرجل وجلس فوق السلحفاة التي عاودت النهوض وإخراج براثنها. بقي المحارب الشاب رافضاً الدخول. حينها قال الشقيق إنه ينوي الذهاب لحضور مجلس، وقد دعا الشاب لمرافقته. قال الصياد بأنه يوافق على الذهاب شرط أن يحصل على حصان، فدُعيت المرأة الشابة كي تجلب له حصاناً. خرجت من الكهف ثم ما لبثت أن عادت وخلفها أفعوان أوكتينا كبير، كان يلتف ويتلوى على مدى الكهف كله. بعض الناس

Twitter: @ketab_n

يقول إنه كان أوكتينا أبيض وإن الشقيق نفسه كان يمتطي أوكتينا أحمر اللون. شعر الصيد بخوف شديد وقال: «هذا أفعوان، لا يمكنني امتطاؤه». أصر الآخرون على أن ذلك ليس أفعواناً، بل الحصان الذي يمتطونه. ضاق الشقيق ذرعاً وقال للمرأة: «ربما من الأفضل أن تجلبي له سرجاً وبعض الأساور لمعصميه وذراعيه». فخرجت ثانية وعادت بسرج وببعض الأطواق للذراع، وقد كان السرج سلحفاة أخرى قاموا بتثبيتها على ظهر الأوكتينا، وكانت الأساور أفاع حية نحيلة، استعدت للالتفاف حول معصمي الصياد.

كاد أن يموت من الخوف وقال: «أي مكان فظيع هو هذا؟ يستحيل علي البقاء هنا والعيش مع الأفاعي ومع الأشياء التي تدب». غضب الشقيق غضباً شديداً واتهمه بالجبن، ثم بدا كأن برقاً شع من عينيه وضرب الشاب، ثم دوى رعد رهيب أفقده وعيه.

حين غدا بمفرده أخيراً بدا واقفاً وقدماه في المياه وكلتا يديه تتمسك بأجمة من الغار كانت نابتة على ضفة النهر، ولم يكن من أثر للكهف أو لشعب الرعد، بل كان الشاب وحيداً في الغابة. تابع طريقه خارجاً من المياه ووصل أخيراً إلى قريته ليجد أن غيابه

Twitter: @ketab_n

كان قد طال كُثيراً حتى اعتقد الناس أنه مات، وذلك على الرغم من أنه حسب غيابه يوماً واحداً لا أكثر تلا حفل الرقص. سأله أصدقاؤه، متقربين منه، عن قصته، فروى لهم، ناسياً التحذير من مغبة ذلك، غير أنه مات في اليوم السابع، إذ لا أحد يعود من العالم السفلي ويتحدث عن الأمر يمكنه أن يبقى حياً.

Twitter: @ketab_n

الدوامة المرصودة

عند منبع جدول ساك[1]، في تنيسي، على بعد نحو ثمانية أميال في أسفل تشاتانوغا، ثمة سلسلة من الدوامات الخطيرة تُعرف بـ «المصاصات»، ويعتبرها الشيروكي المكان الذي عاش فيه أونتسايْ بِي، المقامر، منذ زمن بعيد. وهم يسمونها أون تيغوهي، «القِدْر في المياه»، وذلك نظراً لظهور الماء فيها متموجاً بدوامات، كمثل ما يظهر في قِدْر يغلي. ويجزم الشيروكي أن الدوامات تلك في الأزمنة القديمة كانت تبدو متقطعة[2]، وكان الرجال على متن الكَنْو حين يحاولون اجتياز المكان، يحاذون الضفاف ويبقون متيقظين للانتباه إلى بوادر ثوران الماء، وحين يرونه وقد بدأ بالدوران على نحو أسرع كانوا يقفون وينتظرون هدوءه قبل أن يعاودوا محاولة التقدم.

حدث مرة أن رجلين كانا ذاهبين إلى النهر على متن الكَنْو، وإذ اقتربا من ذلك المكان لاحظا أن المياه تدور مسرعة أمامهما.

(1) Suck creek

(2) تظهر بين الحين والآخر (م).

Twitter: @ketab_n

جذفا ليبلغا الضفة كي ينتظرا هناك هدوء الماء، لكن الدوامة راحت تقترب بدوائر أكثر اتساعاً إلى أن سُحبا إليها. سقطا من الكَنُو وسحبتهما الدوامة إلى قعر المياه، حيث قامت سمكة كبيرة بالتقاط أحدهما ولم يره أحد بعد ذلك. أما الثاني فدارت به المياه إلى الأسفل ودارت، حتى بلغ النقطة الأدنى في مركز الدوامة، وقد حل حينها في دائرة أخرى حملته إلى الأعلى وأخرجته كي يُلقى أخيراً على سطح المياه ويطفو في مياه ضحلة، استطاع أن يطلع منها إلى الضفة. وقد روى فيما بعد أنه حين بلغ الدائرة الأضيق من الدُردور[1] بدت المياه تحته وقد انفتحت فصار في وسعه النظر إلى الأسفل كأنه ينظر من خلال ثقوب سطح منزل، وهناك في قعر النهر رأى جمعاً عظيماً من الناس ينظرون إلى الأعلى ويدعونه للانضمام إليهم، لكن، وما إن رفعوا أيديهم ليلتقطوه، حتى قبض التيار السريع عليه وأبعده عنهم.

(1) اضطراب مائي (م).

Twitter: @ketab_n

ياهولا

جدول ياهوولا الذي يجري في داهلونيغا، في مقاطعة لومبكين، جورجيا، يُسميه الشيروكي ياهولا إي (مكان ياهولا)، وهذه قصة هذا الاسم:

منذ سنوات خلت، قبل الثورة بزمن طويل، كان ياهولا تاجر ماشية مزدهر في أوساط الشيروكي، وكان رنين الأجراس المعلقة حول رقاب أمْهاره[1] يُسمع في كل المعابر الجبلية. ذات يوم نُظم صيد كبير وخرج جميع المحاربين للمشاركة به، لكن حين انتهى الصيد واستعدوا للعودة إلى القرية لم يكن ياهولا معهم. انتظروه وبحثوا عنه لكنهم لم يعثروا عليه، حتى عادوا في النهاية من دونه، وقد حزن أصدقاؤه عليه كما يحزنون على ميت. بعد وقت قصير فوجئ الناس في قريته وسُعدوا حين وجدوه يمشي بينهم ويجلس لمشاركتهم العشاء في المساء. وإذ سألوه عما جرى معه أخبرهم بأنه كان ضائعاً في الجبال وأن الـ نوني هي، الخالدين،

(1) جمع المُهْر: ولد الفرس (م).

Twitter: @ketab_n

عثروا عليه واصطحبوه إلى قريتهم، حيث أقام هناك منذ ذلك الوقت ليحظى بأحسن معاملة وعناية، وذلك إلى أن قاده الشوق لرؤية أصدقائه القدماء. وحين دعاه أصدقاؤه للانضمام إليهم في وقت العشاء قال لهم إن الأمر بات الآن متأخراً جداً - إذ كان قد تذوق طعام الجن ولم يعد بوسعه تناول الطعام مع البشر، وللسبب عينه فهو لم يعد بوسعه الإقامة مع عائلته، بل تنبغي له العودة إلى الـ نوني هي. فتوسل إليه زوجته وأبناؤه وأخوه إليه كي يبقى، لكنه قال إنه لا يستطيع، فالمسألة باتت بالنسبة له إما الحياة مع الخالدين أو الموت مع شعبه - وبعد بضعة أحاديث أخرى قام ليذهب. رآه الناس حين جلس وتحدث معهم وحين قام واقفاً، لكنه ما إن خطا خارجاً من المدخل حتى اختفى كأنه لم يكن.

عاد بعد ذلك مرات عديدة لزيارة شعبه. كانوا يرونه ما إن يدخل البيت، وحين يجلس ويتحدث كان يبدو مطابقاً لشخصيته القديمة في كل أمر، لكنه في اللحظة التي يخطو فيها عابراً العتبة كان يختفي حتى ولو راقبته مئات العيون. كان يأتي كثيراً لزيارتهم لكن توسلاتهم غدت في النهاية أكثر إلحاحاً ما أغاظ الـ نوني هي على الأرجح، فانقطع عن المجيء. على الجبل، عند منبع الجدول، وعلى مسافة عشرة أميال صعوداً من داهلونيغا،

Twitter: @ketab_n

كان ثمة حظيرة مسيجة ومربعة صغيرة، لا سقف لها أو مدخلاً، تضم حجارة غير مشذبة. وقد قيل إنه عاش هنا، في هذا المكان، فأطلق الشيروكي على هذا الأخير اسم ياهولا إي كما أطلقوا على الينبوع الاسم نفسه. في الليل كثيراً ما كان المسافرون المتأخرون، العابرون على الطريق بمحاذاة الجدول، يسمعون صوت ياهولا منشداً أغنيات معينة، أغنيات قديمة محبوبة كان يحب الشدو بها حين يقود قطيع خيوله عبر الجبل، وقد كان ذلك الصوت يلح على المسافرين، كما ترافقت الأغنيات مع أصوات ضرب سياط ورنين أجراس، لكن، وعلى الرغم من اقتراب تلك الأصوات، فإن أحداً أياً الخيول ومن الذين يمتطونها لم يظهر للعيان.

كانت الأغنيات والأجراس تُسمع في الليل وحسب. وكان ثمة رجل من أصدقائه قام بإنشاد الأغنيات ذاتها لبعض الوقت بعد اختفاء ياهولا، غير أن الرجل المذكور توفي على نحو مفاجئ، فخاف الشيروكي إثر ذلك من الشدو بتلك الأغنيات، حتى انقضى وقت طويل فما عادت الأصوات تسمع في الجبل، وحيث اعتقدوا أن ياهولا قد غادر المكان إلى الغرب، على الأرجح، حيث كان أفراد من القبيلة قد سبقوه إلى هناك.

Twitter: @ketab_n

لقد مضى وقت طويل على ذلك الآن، وربما يكون بيت الحجارة قد بات خربة، إلا أن هناك العديد من آباء الرجال المسنين وقد شاهدوه وسمعوا الأغنيات والأجراس منذ مئة عام.

حين غادر الشيروكي جورجيا إلى الأراضي الهندية في عام 1838، قال بعضهم: «ربما يكون ياهولا قد ذهب إلى هناك وسوف نسمعه»، إلا أنهم لم يسمعوه بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

أكلة لحوم البشر المائيين

إلى جانب «نون يهي» الينابيع والجبال الودودة، ثمة سلالة أرواح من أكلة لحوم البشر يسكن أفرادها قيعان الأنهار العميقة ويقتاتون باللحم البشري، خصوصاً لحم الأطفال. وهم يخرجون بعيد طلوع النهار ويطوفون، غير مرئيين، من بيت إلى بيت حتى يجدوا من يكون ما زال نائماً فيردوه بسهامهم الخفية ويُنزلوا جسده الميت إلى قعر المياه معهم كي يولموا عليه. وهم، كي لا يعرف أحد ما فعلوه، يتركون في موضع الجسد ظلاً أو صورة للرجل أو للطفل الذي قتلوهم، والظل أو الصورة هذان ينهضان وينطقان ويجولان كما كان يفعل صاحباهما من دون أن يكون فيهما روح، وخلال أيام سبعة يذويان ويموتان، فيدفنهما الناس معتقدين أنهم يدفنون صديقيهم الميتين. لقد مضى وقت طويل قبل أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الأمر، لكن الآن وبعد أن عرفوا، فهم يحاولون على الدوام أن يكونوا مستيقظين عند طلوع النهار، كما يقومون بإيقاظ أطفالهم قائلين لهم: «الصيادون هنا، في ما بينكم».

Twitter: @ketab_n

وهكذا عرفوا للمرة الأولى عن أكلة لحوم البشر المائيين:

في بلدة تيكوالي تسي كان ثمة رجل مريض وقد ساءت حالته حتى قال الأطباء إنه لن يقوى على الاستمرار في العيش، فقام أصدقاؤه وغادروا منزله وتركوه يموت وحيداً، إذ أنهم في الزمن القديم لم يكونوا ودودين مع بعضهم بعض كما هم الآن، إذ كانوا يخافون من الساحرات اللواتي يأتين لتعذيب المحتضرين.

طوال أيام عدة بقي وحيداً غير قادر على النهوض من السرير، إلى أن جاءت إلى بابه في أحد الصباحات امرأة عجوز. بدت الأخيرة تشبه باقي نساء القرية، غير أنه لم يعرفها. تقدمت إلى السرير حيث يرقد الرجل وقالت له: «أنت مريض جداً ويبدو أن أصدقاءك تركوك. تعال معي وسوف أشفيك». كان الرجل مشرفاً على الموت ما جعله عاجزاً عن الحركة، لكن كلماتها تلك أمدّته بالقوة على الفور، فسألها إلى أين تريده أن يذهب. فقالت: «نحن نعيش على مقربة من هنا، تعال معي وسوف أريك أين». فقام الرجل من سريره وتبعها إلى المياه. حين بلغا الماء خطت المرأة فيها، فتبعها، وكان هناك تحت المياه طريق وبلاد أخرى تماماً كمثل البلاد التي في الأعلى.

Twitter: @ketab_n

مضيا في طريقهما حتى بلغا قرية تضم بيوتاً كثيرة ونساء منصرفات إلى العمل وأولاداً يلعبون. وقد التقيا مجموعة من الصيادين العائدين من رحلة صيد، غير أن هؤلاء الصيادين وبدلاً من تعليقهم أرباع[1] غزال أو دب على أكتافهم، كانوا يحملون أجساد رجال وأطفال ميتين، ومن بينها بضعة أجساد أدرك الرجل أنها تعود لعدد من أصدقائه في تيكوالي تسي.

وصلا إلى أحد البيوت وقالت المرأة: «هذا هو المكان الذي أحيا فيه»، ثم أدخلته إلى البيت معها وأعدت له سريراً وحرصت على راحته. وكان الرجل حينذاك قد أضحى جائعاً، غير أن المرأة علمت أفكاره مرة أخرى وقالت له: «أرى أنك لا تستطيع أكل طعامنا». ثم أشاحت عنه وقامت بوضع يديها أمام معدتها - هكذا—وحين استدارت نحوه من جديد كانت يداها قد غدتا مليئين بالخبز والفول كاللذين يأكلهما في دياره.

هكذا مضت الأيام حتى استعاد عافيته وقوته. وقالت له المرأة حينها إن بوسعه العودة إلى دياره، لكن عليه أن يحرص على عدم محادثة أحد طوال أيام سبعة، وإن قام أحد من أصدقائه بمساءلته عليه أن يومئ بما يوحي باعتلال حنجرته ويبقى صامتاً.

(1) الربع: أحد أقسام أربعة تُقسم إليها الذبيحة (م).

Twitter: @ketab_n

مضت معه في الطريق ذاتها التي تؤدي إلى سطح المياه، ثم قامت المياه بالانغلاق على المرأة ومضى هو بمفرده إلى تيكوالي تسي.

تفاجأ أصدقاؤه حين وصل إلى هناك، إذ كانوا قد اعتقدوا بأنه ضل في الغابات ومات. سألوه أين كان، غير أنه لم يفعل سوى الإيماء إلى حنجرته من دون أن يفوه بشيء، فظنوا أنه لم يتعافَ بعد وتركوه بمفرده حتى مضت الأيام السبعة، إذ ذاك عاد وتكلم وروى قصته كلها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN 978-9948-01-509-3
9 789948 015093

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA